تأصيلات في التوحيد (١)

الطريق إلى السعادة

تأليف
أبي عبد الباري العيد بن سعد شريفي
أستاذ الحديث بكلية العلوم جامعة الجزائر



شريف نبيل

مكتبة وتسجيلات الغرباء الأثرية

الطريق إلى السعادة

تأليف
أبي عبد الباري العيد بن سعد شريفي

الطبعة الثانية
١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

مكتبة ونشريات الغرباء الأثرية

شـارع ١٨ أحمد حسينة - بجوار مسجد السنة - باب الوادي الجزائر
هاتف وفاكس: ٠٢١ ٩٦ ٦٢ ٠٩ / جوال: ٠٧٧٠٣٠ ٢٣ ٥٠
elghorabaa@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالنَا، من يهدِه الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِل فلا هاديَ لَه.

وأشهدُ أن لا إلَه إلاّ الله وحدَه لا شريك لَه، وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾[آل عمران:102]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١﴾ [النساء:1]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:70- 71]

أمّا بعد:فإنَّ أصدقَ الكلامِ كلامُ الله تعالى، وخيرَ الهدي هديُ محمّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثَاتهَا، وكلَّ محدثَة بدعَة، وكلَّ بدعةٍ ضلالَة، وكلَّ ضلالَة في النَّار.

أمّا بعد:

خلَقَ الله تعالى الإنسانَ في أحسَن تقوِيم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾ [التين:4] ، وصوَّرهُ فأحسَن صُورتهُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ٣﴾ [التغابن:3]، وغرزَ في نفسهِ التَّوحيد: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:172]، وركزه في فطرته وجبله عليه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:30]، وفي صحيحِ مسلم عن عياض بن حِمار المجاشِعي رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ ذاتَ يومٍ في خطبتِه: « ألا إنَّ ربِّي أمرَني أن أُعلِّمَكُم ما جَهِلتُم ممَّا علَّمَني يومِي هذا، كُلّ مالٍ نحلتُه عبدًا حلال، وإنِّي خلقتُ عِبادِي حُنفاءَ كُلَّهُم، وإنَّهُم أتتهُم الشَّياطِينُ فاجتالَتهُم عن دِينِهم وحرَّمَت علَيهِم ما أحلَلتُ لهم، وأمرَتهُم أن يُشرِكُوا بِي مالَمْ أُنزِّل بِهِ سُلطَانًا...»[1] الحديث.

وفي الصَّحيحينِ عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قال رسُول الله ﷺ: « مَا مِن مَولُودٍ إلاّ يُولَدُ عَلَى الفِطرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ويُنَصِّرَانِهِ ويُمَجِّسَانِهِ كما تُنتِجُ البَهيمَةُ بهِيمَةً جَمعَاءَ، هَل تحِسُّونَ فِيها مِن جدعَاءَ ؟ ثمّ يقُول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:30]»[2]. وأمدَّه بوسائلَ تُعينُه على معرفةِ الحقِّ وإدراكِه والتّمسّك به: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:78] وقال عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا

(1) أخرجه مسلم (2865).

(2) أخرجه البخاري (1992)، ومسلم (2658) واللفظ له.

مَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المُلك:23]. وما فعلَ الله تعالى هذا كُلَّه إلاّ لأجلِ عبادتِه سبحانهُ من جهَة، وسعادَة بني آدَم من جهةٍ أخرَى ، لكن بشرطِ انتفاءِ الموانِع والعقباتِ التيِّ تقفُ في طريقِ عبوديَّتِه لربِّ الأرضِ والسموات.

ولَو تُركَ الإنسانُ يعيشُ بهذِه المقوِّماتِ، بدونِ عوارضَ تُدنِّسها، ولا عوائقَ تُكدِّرها، لبلغَ الهدفَ الأسمَى الذِّي من أجلِه خُلِق؛ وهُو معرفَة خالقِه والتَّألُّه له؛ كَما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:56] ، وقال أيضًا: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:12].

ويظهرُ أثرُ هذا جليًّا عندَ فقدِه الأسبابَ-التيِّ يغلطُ فيهَا كثيرٌ منَ النَّاس فيجعلُونهَا هيَ المؤثِّرةَ بالأسَاس- فإنّه ثمّتئذٍ تصفُو له الفِطرةُ بعدمَا أصابتهَا الأدنَاس، وتؤُوب إلى بياضِ عهدِها الأوّل بعدمَا كدَّر صفوهَا الأرجَاس، ويعُود الإنسانُ إلى ربِّه عودَة قهريَّة؛ كَما قال تعالى في وصفِ حالِ هؤلاء: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:22] ، وقال أيضا: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت:65]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً

مِنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾ [الزُّمَر:8]، إلى غير ذلك من الآيات.

هذا، ولَّما كانت الغفلَة والنِّسيان، طبعًا لازمًا لبني الإنسان فإنَّ تلك المقوِّمات قد ينطمِسُ نورُها في بعضِ الأحيَان بسببِ العادَة والتَّقليد؛ اللَّذين هُما من أخطرِ الأسبابِ التي تُذهبُ من الفطرَة صفاءَ التَّوحيد، وتُحِلُّ محلّه الشِّرك والتَّندِيد، وإن كانَ في الحقيقَة ونفسِ الأمرِ يُدرِكُ ويُقرّ بأنّه تاركٌ للحقِّ؛ كما قال تعالى في حقِّ فرعونَ وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾ [النمل:14]، وقال في شأنِ قومِ إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤﴾ [الأنبياء:59-64]، لِذلكَ أرسلَ الله سبحانه وتعالى رسُوله ﷺ مذكِّراً بالعهدِ الأوّل، قالَ تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذاريات:55]، وقال أيضا: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١﴾ [الغاشية:21]، فكانت مُهمَّته التَّذكيرَ بالعهد الأوَّل الذِّي أخذَه الله على بني آدم، لأنَّه مركوزٌ في الفِطر، ولذلكَ لم يأمُرهم بالنَّظر ولا القصدِ إلى النّظر!، ولا كلّفهم بضبطِ الأدلّة والتّدليل على ما يعتَقدُون ولو مرّةً في العُمر!-كما يقُوله من يقُوله من أهلِ الكلام

-!!، وإنَّما كانَ يكتفِي منهم بقولِ كلمَة التَّوحيد، لأنَّهم إذا قالُوها وافقَت فطرتَهم الأولى؛ ذلكَ لأنَّ الأصلَ في الإنسانِ التَّوحيد لا الشِّرك كما يزعُمه أهل البدعِ من أهل الكلام وغيرهم، وفي هذَا السِّياقِ يقُول ابن القيِّم -رحمه الله- : " فطُرق العِلم بالصانِع فِطرية ضرُورية ليسَ في العلومِ أجلَى منها، وكلّ ما استُدِل به على الصانِع فالعِلم بوجُودِه أظهرُ من دلالَتهِ، ولهذا قالَت الرُسل لأُممِهم: أفي الله شكّ؟ فخاطَبُوهم مخاطبَة من لا ينبَغي أَن يخطُر له شكٌّ ما في وجُود الله سبحانَه، ونصبَ من الأدلَّة على وجُوده ووَحدانيَّته وصِفاتِ كمالِه الأدلَّة على اختلافِ أنواعِها، ولا يُطيقُ حصرَها إلا الله، ثم ركَزَ ذلك في الفِطرة ووضعَه في العقلِ جملَة، ثمَّ بعثَ الرُسل مذكِّرين بِه؛ ولهذا يقُول تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات:55] ، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الأعلى:9] ، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغاشية:21]، وقـال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [المدَّثر:49]، وهُو كثيرٌ في القرآن، ومُفصلِين لما في الفطرَة والعقلِ العِلمُ بِهِ جمُلةً، فانظُر كيفَ وجدَ الإقرارَ بِهِ وبتَوحيدِه وصفاتِ كمالِه ونعوتِ جلالِه وحكمتِهِ في خلقِهِ وأمرِهِ؛ المقتضيَةِ إثباتَ رسالَة رُسلِه، ومجازَاة المحسِن بإحسانِه والمسِيء بإساءَته، مُودَعًا في الفطرَة مَركُوزًا فيها، فلو خُلِّيت علَى ما خُلِقت عليه، لم يعرَض لها ما يُفسدُها ويحوِّلهاَ ويغيِّرها عمَا فُطِرت علَيه، ولأقرَّت بوحدَانيته ووُجوبِ شكرِه وطاعتِه، وبصفاتِهِ وحكمتِهِ في أفعالِه، وبالثَّوابِ والعِقابِ، ولكنَّها لما

فسدَت وانحرَفت عن المنهجِ الذِّي خُلِقت عليه أنكرَت ما أنكرَت وجحدَت ما جحدَت، فبعَث الله رُسله مذكِّرين لأصحابِ الفِطر الصحيحَة السليمَة، فانقادُوا طوعًا واختيارًا ومحبَّةً وإذعانًا بما جعَل من شواهِد ذلِك في قلُوبهم،حتىَّ إنَّ منهُم من لم يسأَل عن المعجزَة والخارِق، بل عَلِم صحَّة الدَّعوةِ من ذَاتِها، وعَلِم أنهَّا دَعوةُ حقٍّ، برُهانُها فيها، ومُعذِرين ومُقيمِين البيِّنَة على أصحابِ الفِطر الفاسِدة، لِئلا تحتَج علَى الله بأنَّه ما أرشدَها ولا هدَاها، فيحقُّ القَولُ عليهَا بإقامَة الحجَّة، فلا يكُون سبحانَه ظالماً لها بتعذِيبِها وإشقائِها.

وقد بيَّن ذلك سبحانَه في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ [يس:70]، فتأمَّل كيفَ ظهرَت معرفةُ الله والشهادَة لهُ بالتَّوحيدِ وإثبَاتِ أسمائِه وصفاتِه ورسالَةِ رُسلِه، والبعث للجزاء مسطورَة مُثبَتةً في الفِطر، ولم يكُن ليعرف بأنَّها ثابتَةٌ في فِطرتِه، فلَّما ذكَّرتهُ الرُسل ونبهّتهُ؛ رأَى ما أخبرُوه به مستقرًّا في فِطرتِه، شاهدًا به عقلُه، بل وجوارِحهُ ولسانُ حالِه، وهذا أعظمُ ما يكُون من الإيمانِ، وهوَ الذِّي كتبَهُ سبحانَه في قلُوبِ أوليائِه وخاصَّتِه، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة:22].

فتدبَّر هذَا الفصلَ فإنَّه من الكنُوزِ في هذا الكتَاب، وهو حَقيقٌ بأَن تُثنى علَيه الخناصِر، ولله الحمدُ والمنَّة"[1].

فعاشَ ﷺ داعياً إلى كلمَة التَّوحيد كما قال : «أُمِرتُ أَن أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إلاّ الله، فَمَن قَالَ لا إِلَهَ إلاّ الله فَقَدَ عَصَمَ مِنّي نفسَهُ وَمَالَهُ إلاّ بحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله »[2].

مُعلّماً النّاس طريقَ العبادَة التي لايصلُ إليهَا الإنسانُ بعقلِه، مُعرّفًا لهم بطرِيق الخيرِ والشَّرِّ: « إِنَّهُ لم يَكُن نَبيٌّ قَبلِي إلاّ كَانَ حَقًّا عَلَيهِ أَن يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خيرِ مَا يَعلَمُهُ لهَم وَيُنذِرَهُم شَرَّ مَا يَعلَمُهُ لهَم »[3]، وعن أبي ذرّ رضي الله عنه قالَ: تركنَا رسولُ الله ﷺ وما طائِر يقلِّب جناحَيهِ في الهوَاء إلاّ وهُو يذكّرنا مِنه علمًا، قال : فقال ﷺ : «مَا بَقِيَ مِن شَيءٍ يُقَرِّبُ مِنَ الجنَّةِ وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ إلاّ وَقَد بُيِّنَ لَكُم »[4] .وإنَّ من أعظَم ما يرزقُ الله سبحانَه وتعالى عبدَه النّظرَة الصّحيحَة للأشياء، **لأنّ فسَاد الرُّؤيةِ يكُون سبباً ودافعًا قويًّا للبعدِ عن الحقِّ، والاقترابِ منَ البَّاطِل.**

وفسادُ النّظرَة آتٍ من قِبل مجمُوعة من الأعدَاء ، تسعَى دائمًا لإضلالِ الإنسانِ وإغوائِه، وذلكَ بإعطائِه النّظرَة الخاطِئةَ للأشيَاء، وهي:الشّيطان، والنّفسُ

---

(1) مفتاح دار السّعادة (1/ 280 وما بعدها).

(2) أخرجه البخاري (2786) ومسلم (21).

(3) رواه مسلم (1844) وغيره.

(4) أخرجه الطّبراني في " المعجم الكبير " رقم (1647) وصحّحه الشّيخ الألباني في " سلسلة الأحاديث الصّحيحة " (4/ 416/ 1803).

الأمّارة بالسُّوء، والمجتمَع الذِّي يعيشُ فيه؛ لأنَّ الإنسانَ مدنيٌّ بالطَّبعِ - كما يقال-. وهاكَ نماذجَ على ما أقُول:

الشيطان : قالَ الله تعالى لآدم: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:35]، فجاء الشيطان مُوسوسًا فقال له: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه:120] ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف:20].

النّفس الأمّارة بالسّوء أو الهوَى: كما في قصّة يُوسف عليه السلام مع امرأَةِ العزيز، قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف:30-32]، ثمّ قالَت بعدَ ذلكِ معترفَة بخطئها: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف:51].

المجتمع : قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا

تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأعراف:38] ، وقال أيضا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ [فُصِّلَت:29].

فالذِّي يعصِمُ الإنسانَ من كُلِّ هذهِ الصَّوارِف والعوائِق هُو الرُّؤيةُ الصَّحيحة السَّليمة المبنيَّة علَى الكتابِ والسُّنَّة وفهمِ سلَف الأمَّة ﷺ.

وجريًا علَى نهجِ الإمامَين العظيمَين شيخِ الإسلام ابن تيميَّة الحرّاني وتلميذِه ابن قيّمِ الجوزيَّة العالمِ الرّبّاني في تصحيحِ المفاهِيم الخاطئِة، وبيَان النّظرَات الصّائِبَة للأشياء، حاولتُ مستعينًا بالله جلّ في عُلاه أن أقدّم بعضَ الرُّؤى الصَّحيحة والنَّظرات المليحة، التيِّ تُساعد العبدَ المسلِم علَى السَّير إلى الله والدَّار الآخِرة، وذلِك من خلالِ الدُّروسِ والمحاضَرات التي ألقيتُها في بيتي بالجزائر العاصمَة - حرسهَا الله وسائِرَ بلادِ المسلِمين من الفِتن - مساءَ كلِّ ثلاثاءَ؛ وسمّيتهَا " تأصِيلات في التَّوحِيد ".

فأرجُو منَ الله العلِيِّ القدِير أَن ينفَعني بها في حيَاتي ويومَ لقائِه، وأن ينفعَ بها عامَّة المسلِمين.

وكتب:

أبو عبد الباري العيد بن سعد شريفي

بالجزائر العاصمة في: 10 صفر 1429هـ

الموافق لـ: 17 فبراير 2008 م.

الطّريق إلى السّعادة...

كُلّ إنسانٍ يسعَى إلى تحقِيقهَا، كُلُّ واحدٍ يصبُو إلى امتِلاكهَا !.

إنهَّا السَّعادةُ، وما أدرَاك ما السَّعادة !

تلكَ الغايَة المنشُودة، والمنيَة المفقُودة !

ما مِن أحدٍ علَى وجهِ هذهِ البسِيطة إلاّ ويحدُوه الأملُ لاكتسَابهاَ، مؤمنًا كان أم كافرًا، برّا أم فاجرًا !.

لكن كُلُّ واحدٍ يتمنَّى الحصولَ على هذِه السَّعادة من الطَّريقِ التيِّ يحبُّها، والسَّبيلِ التيِّ يُريدُها !.

فمِنهم مَن يقصدُها من جانِب الجاهِ والشَّرَف !

ومنهُم من يظنُّ السَّعادَة في جمعِ المالِ والتَّرَف !

وآخرُون يبغُونهاَ من جِهةِ السُّمعةِ والشُّهرَة !

وهكذا ...

فما هي الطّريق الحقيقية إلى السّعادة ؟! لمعرفَة ذلك لابدَّ من الرّجوعِ إلى كتابِ الله وسنّةِ رسولِه ﷺ، فإنَّ فيهما الجوابَ الكافي الشّافي عن هذا السّؤال، لأنّهما بيّنا كلَّ أسبابِ السّعادة وطُرق الشّقاء .

وإذا رجَعنا إلى كتابِ الله وسنّة رسولِه ﷺ وجدنا أنَّ تحقيقَ السّعادةِ إنّما يكونُ بالإيمانِ والعملِ الصّالحِ.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:97].

وفي الصّحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: « لَيسَ الغِنَى عَن كَثرَةِ العرضِ وَلَكِنَّ الغِنَى غِنىَ النَّفسِ »[1]، " فليسَ للعبدِ في دنياه وآخرَته أنفعُ من امتثالِ أوامرِ ربّه تباركَ وتعَالى، وما سَعِد من سَعِد في الدّنيا والآخرة إلاّ بامتثالِ أوامرِه، وما شَقِيَ في الدّنيا والآخرَة إلاّ بتضييعِ أوامرِه "[2].

ومِن نِعمِ الله عزَّ وجلّ علينَا، أَن جَعَلَ تحقيقَ هذهِ السّعادة في مُتَناولِ كلِّ واحدٍ منَّا، ليسَت خاصَّة لأحدٍ دونَ أَحَد .

ويذَكِّرني هذا بمجلِس وقعَ لي مع أفرَاد عائلتي الكبيرَة في يومٍ من الأَيَّام، فانتهزت اجتماعَهم فطرَحت عليهم سؤالاً- لأنَّ من طبعِي أنّني إذَا جلستُ مجلسًا لا أسكُت؛ وإنَّما أتذَاكر مع من معِي صغيرًا كانَ أو كبيرًا - فقُلت: كيف يمُكِن لكلِّ واحدٍ منكُم أن يحُصِّل السَّعادة؟ وبدأَ كلّ واحدٍ منهُم يجيبُ بما يرَاه ويظنّه محقّقًا للسَّعادة.

فأجبتُهم بقولي :إنّ تحقيقَ السّعادةِ سهلٌ يسِير، على المؤمنِين الموفَّقين غير عسِير، ذلكُم لأنّ الله عزّ وجلّ جعلَها في متناول جميعِ البشرِ:كبيرِهم وصغيرِهم، ذكرِهم وأنثاهم، فقِيرِهم وغنيِّهم، شريفِهم ووضيعِهم، فلو اختصَّ بها الفقرَاء

(1) البخاري (6081) ومسلم (1051).
(2) الدّاء والدّواء لابن القيّم (186) .

دونَ الأغنيَاء لصارَ فيه ظلمٌ للأغنيَاء، وكذلك العكس فلَو اختَصَّ بها الأغنياء دون الفُقراء لكانَ فيه هضمٌ لحقّ الفقرَاء؛ والله تعالى منزّه عن الظّلم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:49] ، وقال: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصِّلَت:46]. فجعلَها سبحانَه لكلِّ من آمنَ وعمِل صالحاً، كما في الآية السّابقة، فما أعظمَها من رحمةٍ وما أجلَّها من نعمَة!.

وبناءً على كلّ ما سبق أقُول :

سعادَة العبدِ في الدّنيا والآخرَة مبنيَّة على أصلَين عظِيمين:

الأوّل : أَن يَعلَم علمًا جازمًا أنَّ حياتَه بدِينهِ لاَ بِغَيرِه.

الثّاني : أَن يتيقَّنَ أنَّ نَفسَهُ وَمَالَهُ مُلكٌ لله تعَالى.

فمتى حقّق هذين الأصلَين حازَ على السّعادَة بإذنِ الله، وسيأتي الكلام علَى هذينِ الأصلَين مفصّلا في طيّات هذه الرّسالة – بإذن الله – .

والبِدايةُ تكُون بالأصلِ الأولِ ثمّ يتلُوه الأصلُ الثّاني.

فأقول وبالله التّوفيق :

الأَصلُ الأَوَّل: حَياةُ العَبدِ بِدِينه

ينبغي على العبدِ المسلِم أن يعلَم علمًا جازمًا ويتيقَّن يقينًا لا مريَة فيهِ أنَّ حياتَه بدينِه، ومتى رامَ العيشَ بدُونهِ ضاعَ وهلَك، وقد أشارَ المولى تبارك وتعالى إلى هذا الأصلِ العظِيم في كتابهِ الكَريم، حيثُ قالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:24]،فبيَّن أنَّ الحياة الحقيقيَّة تكُون بالاستجابَة لله وللرَّسولِ ﷺ، وبمقدَار ما يستجيبُ المسلمُ لربِّه ولنبيِّه ﷺ بقدرِ ما يقذفُ الله في قلبِه من الحيَاة.

يقُول ابن القيِّم – رحمه الله – : "فتضمَّنت هذِه الآيَة أمورًا:

أحدُها: أنَّ الحيَاة النافعَة إنَّما تحصُل بالاستجابَة لله ورسولِه؛ فمَن لم تحصُل لهُ هذِه الاستجابَة فلا حيَاة لَه، وإن كانَت لهُ حياةٌ بهيمِيَةٌ مشتركَة بينَه وبينَ أرذَل الحيوانَات، فالحيَاة الحقيقيَّة الطيِّبة هيَ حياةُ من استجَابَ لله والرَّسولِ ظاهرًا وباطنًا؛ فهؤلاءِ هُم الأحياءُ وإن ماتُوا، وغيرُهم أمواتٌ وإن كانُوا أحياءَ الأبدَان، ولهذَا كانَ أكمَل النَّاس حياةً أكملُهم استجَابةً لدعوةِ الرَّسول، فإنَّ كلَّ ما دعَا

إليهِ ففيهِ الحيَاة، فمَن فاتَه جزءٌ منهُ فاتَه جزءٌ من الحيَاة، وفيهِ منَ الحيَاة بحسبِ ما استجَاب للرّسول"[1].

والمقصُود بالحياةِ في الآيةِ الحيَاةُ الإيمانيَّة، إذ هِيَ الحيَاة الحقيقيَّة، لأنَّ الحيَاة حياتَان: حياةٌ حيوانيَّةٌ وحيَاةٌ إيمانيَّة.

الحياة الحيوانيَّة: وهذهِ يشترك فيهَا الإنسانُ والحيوَان علَى حدٍّ سوَاء، ولا فرقَ بينهُما في ذلِك، فهُما يشتركَان في المشرَب والمأكل والمنكحِ وغيرِ ذلِك، فإذَا كانَ نظرُ الإنسانِ قاصرًا على هذِه الحيَاة فإنَّه يُصبح كالحيوَان لا يُفكِّر إلا في بَطنهِ وشَهوتِه، وهذَا هوَ الذِّي وصفَ الله تعالى بِهِ الكفَّار وذمَّهم عليَه بقولهِ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد:12].

فشبَّههُم بالأنعامِ من حيثُ عدم التَّفكيرِ والتَّمييز بينَ الأشياءِ، معَ أنَّه سبحانَه وتعالى قَد منَّ عليهِم بوسائِل الفَهمِ والإدرَاك؛ لكنَّهم لم يستغِلُّوهاَ في طاعَتهِ عزّ وجلّ والقُرب منهُ؛ كما وصفَهم الله تعالى بذلِك في قولِهِ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[الأعراف:179].

وقال أيضا: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:44]، فكانُوا من هذهِ النَّاحيَة أضلَّ من الأنعَام، لأنَّ هذهِ

(1) الفوائد (112).

الأخِيرَة مخلُوقة مُسخَّرة للبَشرِ ذوِي العقُول والألبَاب، وقَد قامَت بمهمَّتِها على أحسنِ وجهٍ منذُ خلقها الله عزّ وجلَّ، وأمّا أولئك الكفرَة فقد أصبحَت تلك الوسَائل التيِّ منَّ الله بها علَيهم مجرَّدَة عن وظِيفتِهَا الحقيقِيَّة؛ التيِّ هِيَ الفهم والتدبُّر والنَّظر والتَّفكُّر؛ وهو المقصُود من خلقِهم كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:189-191]، وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:164]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزُّمَر:42] ، وقال أيضا: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:101] ، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق:6]، والآياتُ في هذَا المعنَى كثيرةٌ جدًّا في كتابِ الله تعالَى.

قالَ إمامُ المفسِّرينَ أبو جعفر الطَّبرِي -رحمه الله- عندَ تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف:179]"يعني جلَّ ثناؤُه بقولِه أولئكَ كالأنعام: هؤُلاء الذِّين ذَرَأَهم لجهنَّم هُم كالأنعام، وهيَ البهائِمُ التيِّ لا تفقهُ ما يُقَالُ لهاَ ولا تفهم ما أَبصرَتهُ لما يصلُح ولِمَا لا يصلُح، ولا تَعقِل بقلُوبها الخيرَ منَ الشَّرِّ فتُميِّز بينهما، فشبَّههُم الله بها إذ كانوا لا يتذَكَّرون ما يَرون بأبصارِهم من حُجَجه ولا يتفكَّرون فيما يسمعُون من آي كِتابِه، ثمَّ قال: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾، يقُول: هؤلاءِ الكفرَة الذِّين ذَرَأَهُم لجهنَّم أشدُّ ذهابًا من الحقِّ وألزمُ لطريقِ البَّاطلِ من البهائِم، لأنَّ البهائمَ لا اختيارَ لها ولا تمييز؛ فتختَار وتميِّز، وإنَّما هيَ مُسخَّرة، ومع ذلِك تهرُب من المضارِّ وتطلُب لأنفسِها من الغذاءِ الأصلَح، والذِّين وصفَ الله صِفتَهم في هذِه الآية معَ ما أُعطُوا من الأفهَام والعقُول المميِّزة بينَ المصالحِ والمضارَّ، تترُك ما فِيهِ صَلاح دنياهَا وآخرتهَا وتطلُب ما فيهِ مضارُّها، فالبهَائمُ منهَا أسَدُّ وهيَ منهَا أضلُّ؛ كما وصفهَا بهِ ربُنا جلَّ ثناؤه"(1).

وهذَا حالُ من عطَّل حواسَّه عمَّا خُلقت لهُ وأُمِرت به؛ فصارَ حالُه كحالِ الحيَوان يسمعُ ولا يَعِي، ويَرَى ولا يُبصر ولا يعقِل الأشيَاء بقلبِه؛ إذ هُو محلُّ

(1) جامع البيان عن تأويل آي القرءان (6/ 129).

الفهمِ والتدبُّر والوَعي والتفكُّر، بمعنى أنَّه لم يصل إلى سماع الهداية ورؤيتها وعَقْل الاستجابة وفِقْهِهَا فماذا حصل له؟!

ماتَت حواسُّهُ كلُّها؛ كما قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٧١﴾[البقرة:171]، فنتجَ عن ذلِك فسادٌ في نظرتِه إلى الأشيَاء وخطأٌ في تصوُّرِها، بحيثُ أصبَحت وظيفتُهَا عندَه حِسيَّة مجرَّدَة عن التفكُّر والتدبُّر، تنتهِي به إلى ذاتِ الشَّيء فقَط، دونَ أن تنقُلَه إلى خالِقهِ وبارِئهِ وفاطِرِه؛ فكانَت رُؤيتُه هذِه شبيهَة بحالِ الحيَوانِ الذِّي لا يستطِيع التَّمييز بينَ الأشيَاء!.

قال ابن القيِّم -رحمه الله- : "...ومنها قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾[الفرقان:44]، فشبَّه أكثرَ النَّاس بالأنعَام، والجامعُ بينَ النوعينِ التَّساوِي في عدَم قَبُول الهُدَى والانقيادِ لَه، وجعَلَ الأكثَرين أضلَّ سبيلاً من الأنعَام؛ لأنَّ البهيمَة يهدِيهَا سائِقُها فتهتدِيَ وتتَّبِع الطَّريق فلا تحيدُ عنها يمينًا ولا شمالاً !، والأكثَرون يدعُوهم الرُّسل ويهدُونهُم السَّبِيل فلا يستجيبُون ولا يهتدُون، ولا يفرِّقونَ بينَ ما يضرُّهم وبين ما ينفعُهم، والأنعَام تُفرِّق بين ما يضرُّها من النَّباتِ والطَّرِيق فتجتنِبُه وما ينفعُها فتُؤثِرُه، والله تعالى لم يخلُق للأنعامِ قلوبًا تعقِل بها ولا ألسنَة تنطقُ بهَا، وأعطَى ذلِك لهؤلاءِ ثمَّ لم ينتفعُوا بما جعَل لهم من العقُول والقلُوب والألسِنَة والأسماعِ

والأبصارِ، فهُم أضلُّ من البهائِم، فإنَّ من لا يهتدِي إلى الرُّشدِ وإلى الطَّريقِ مع الدَّليلِ إليهِ أضلُّ وأسوءُ حالا ممن لا يهتدِي حيثُ لا دليلَ معهُ."[1].

الحياةَ الإيمانيّة: وهي الحياة الحقيقيَّة التيّ تكُون بالإيمان والتَّوحيدِ والارتباطِ بالله تعالى والتعلُّق بهِ والتَّذللِ له والانكسار بين يديه والعيشِ معه في كلِّ لحظةٍ وحِين، وهيَ التي ينبَغي على العبدِ المسلِم أن يصِلَ إليهَا ويحقِّقَها لأنَّ حياتَه بذلك.

ولن يتمَّ هذا إلا بترسُّم خُطَى النَّبي ﷺ ، والسَّير على نهجِه وسُلوكِ طريقتِه، لأنّه كلَّما قوِيَ اتّباعنا له وتشبُّهنا به وتمسّكنا بسنّتِه كلّما كانت الحيَاة الإيمانيَّة في القلبِ أكثر وأوفر.

هذه الحياة هي الحيَاة الطيِّبة التيِّ ذكَرها ربُّنا في كتابه بقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:97]، فجعلَها سبحَانهُ مشرُوطَة بأمرَين اثنين هُما: الإيمانُ والعملُ الصَّالح، ولَن يكُون العمَل صالحًا إلا إذَا كانَ مستقًى من هَديِ النّبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:110].وقال جلّ وعلا:

(1) إعلام الموقعين (1/ 159).

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:21].

إذن فالحيَاة الطيِّبة هيَ الحيَاة الإيمانيَّة التي يكُون الشرعُ فيها أساسًا وحَكمًا في كلِّ شيء، فتتَعدّى بعدَ ذلك إلى الحيَاة البشريَّة التي يعيشُها العبدُ مع أهلِه وأبنائِه وإخوانِه بحيثُ تظهَر وتتجسَّد في كلِّ حالٍ من أحوالِه من فرحٍ بنعمَة وشُكرِها، أو حُزنٍ عندَ مُصيبَة أو بليَّة وصبرٍ عليهَا، وغيرِ ذلكَ ممَّا أباحهُ الشَّرعُ وأذِن فِيه.

فالشَّرع لم يأتِ لإهمالِ الحظّ البشَريِّ؛ بل راعَى هذا الأمرَ وأولاهُ عنَاية لِمَا علِم الله فينَا من ضعفٍ وعجزٍ شديدينِ، كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء:28].

فهذا رسُول الله ﷺ يُمثِّل الحيَاة الطيِّبة في عيشِه مع أهلِه وأزواجِه وأصحابِه ﷺ أجمعين، فيقُول عليه السلام: « حُبِّبَ إِلَيَّ مِن دُنيَاكُم الطِيبُ وَالنِّسَاءُ وَجُعِلَت قُرَّةُ عَينِي فِي الصَّلاةِ » (1).

ولمَّا كانَت محبَّة الطِيب والنِّساء من الأمورِ البشريَّة التي لا تنفَكُّ عنهُم غالبًا أذِن الله تعالى فيها مراعَاة للحظّ البشريِّ، ورحمةً مِنه بهِم لضعفِهم وعجزِهم فأصبَحت هذه المحبُوبات المأذُون فيهَا شرعًا من الحيَاة الطيِّبة التي أشارَ إليها

(1) أخرجه أحمد في "مسنده" برقم (11845، 11846، 12584، 13526)، والنسائي في "سننه" برقم (3949- 3950)، وصححه الألباني في "صحيح سنن النسائي" برقم (3940).

القرآن الكَريم بل قد تَصير هذه المباحَات مُعينَة على الطَّاعة والعِبادَة والقربِ منه عزّ وجلّ إذا اقترنَت بها نيّة صاحِبها.

يقول ابن القيِّم - رحمه الله -: " **فَصل**: فمِنَ المحبَّة النَّافعة محبَّة الزَّوجة وما ملَكت يمينُ الرَّجلِ، فإنهَّا مُعينةٌ على ما شرَع الله سبحانه لهُ من النّكاحِ وملكِ اليَمين من إعفَاف الرَّجل نفسَه وأهلَه، فلا تطمحُ نفسُه إلى سواهَا من الحرَام، ويُعِفُّها فلا تطمحُ نفسُهَا إلى غيرِه وكلَّما كانت المحبَّة بين الزَّوجينِ أتمَّ وأقوى كانَ هذا المقصُود أتمَّ وأكمَل، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف:189]، وقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم:21]، وفي الصحيح عنه ﷺ: « أَنَّهُ سُئِلَ مَن أَحبُّ النَّاسِ إِلَيكَ ؟ فَقَالَ: عَائِشَةُ ... »[1]، ولهذا كان مسرُوق - رحمه الله - يقول -إذا حدَّث عنها-: "حدّثَتني الصدّيقة بنت الصدِّيق حَبيبَة رسول الله ﷺ المُبرَّأة من فوق سَبع سموَات"، وصحّ عنه ﷺ أنّه قال: « حُبِّبَ إِلَيَّ مِن دُنيَاكُم الطِيبُ وَالنِّسَاءُ وَجُعِلَت قُرَّةُ عَينِي فِي الصَّلاةِ »[2]. فلا عيبَ على الرَّجل في محبّته لأهلِه وعِشقِه لها، إلا إذا شغَله ذلك عن محبّة ما هو أنفع له من محبّة الله ورسُوله، وزاحَم حُبَّه وحُبَّ رسوله فإنَّ **كلَّ محبَّة زاحمت محبَّة الله ورسوله بحيثُ تُضعفُها وتُنقِصُها فهي مذمُومة، وإن أعانَت على محبّة الله ورسُوله**

---

(1) رواه مسلم (2354).

(2) سبق تخريجه ص (35).

وكانَت من أسبَاب قوّتها فهِيَ محمُودَة، ولذلك كانَ رسول الله ﷺ يحبُّ الشراب البارِد الحُلو، ويحبُّ الحلوَاء والعسَل، ويحبُّ الخَيل، وكان أحبّ الثيابِ إليه القمِيص، وكانَ يحبّ الدّباء، فهذِه المحبّة لا تُزاحم محبّة الله، بل قد تجمَع الهمّ والقلبَ على التّفرغ لمحبّة الله، فهذه محبّة طبيعيَّة تتبَع نيّة صاحبِها وقَصدَه بفعل ما يحبّه، فإن نوَى به القوَّة على أمرِ الله تعالى وطاعتِه كانت قُربَة، وإن فعل ذلِك بحكمِ الطَّبع والميلِ المجرَّد لم يُثَب ولم يُعَاقب [1] وإن فاتَه درجَة من فعلَه متقربًا بِهِ إلى الله ..."[2].

فالحاصلُ أنّ هذه المباحَات المحبُوبة إلى النَّفس لا تُعيق السّير إلى الآخرَة، بل هيَ حظٌ بشريٌّ لابدَّ منه للإنسان لأنّه مجبُول عليه، وهذا ما يجعلُه وسطاً بين رؤيتَين :

- رؤية *ملائكية*: منزَّهة عن تلك الأمور البشريّة اللازِمة لها.
- رؤية *شيطانية*: تجعل صاحبها ينغَمس في بحر الشَّهوات والملذَّات حلالها وحرامِها، غير مبالٍ بحكم الله فيها.

واعتبَار البشريّة دون نِسيانِ المقصد الأعلَى، المتمثّل في العبادَة والطّاعةِ، هُو الوسطيَّة المطلُوبة التي تسمَح للعبدِ بقضاءِ وَطرِه من المباحَات والمحبوبَات

---

(1) وهذا على نقيضِ الرَّحمة الربّانيّة وخلاف الهدي لنَّبويِّ، لأنّ الحلال إذا اشتغل به صاحبه ولم ينو به قربة و صرفه عن حرام أُجرَ عليه، قال ﷺ: « وفي بُضعِ أَحَدِكُم صَدَقَة » الحديث، لكن إن نوى به التقوّي على الطاعة زاد الأجر، والله أعلم.

(2) إغاثة اللهفان (2/ 140).

الدُّنيويَّة اللازمة لَه، لأنَّ بقَاء الاستقرَار ودوام السَّير إلى الآخرة مترتِّب عليها، فكانَت من هذه الجهَة مُكمِّلة للمقصَد الأصلِيِّ ومعينَة على القيَام به، وضمنَ هذا المعنى يقول الإمام الشاطبي -رحمه الله-: "وأما المقاصِد التَّابعة فهيَ التي رُوعِيَ فيها حظُّ المكلَّف، فمن جهتِهَا يحصُل له مقتضَى ما جُبِل عليه من نيل الشّهوَات والاستمتَاع بالمباحَات وسدِّ الخلاَّت، وذلِك أنَّ حكمَة الحكِيم الخبِير حَكمَت أنَّ قيَام الدِّين والدُّنيَا إنَّما يصلُح ويستمرُّ بدَواعٍ من قِبَلِ الإنسان تحملُه على اكتسَاب ما يحتَاج إليه هو وغيرُه، فخَلَق له شهوَة الطَّعام والشَّرابِ إذا مسَّه الجُوع والعطَش، ليحرِّكه ذلكَ الباعِث إلى التَّسبّبّ في سدِّ هذه الخلَّة بما أمكنَه، وكذلِك خلَق له شهوَة النِّساء لتحرِّكه إلى اكتسَاب الأسبَاب الموصلَة إليها ... ثم خلَق الجنَّة والنَّار وأرسلَ الرُّسل مبيِّنة أنَّ الاستقرَار ليس ههنا وإنَّما هذه الدَّار مزرعَة لدَار أخرَى، وأنَّ السعادَة الأبديَّة والشقَاوة الأبديَّة هنالِك، لكنَّها تكتسِب أسبابها هنَا بالرُّجوعِ إلى ما حدَّه الشارِع أو بالخروجِ عنهُ ... فمن هذِه الجهَة صارَت المقاصِد التَّابعة خادِمةٌ للمقَاصد الأصليَّة ومُكمِّلة لها، ولو شَاء الله لكلَّف بها مع الإعرَاض عن الحظُوظ أو لكلَّف بها مع سلبِ الدَّواعي المجبُول عليهَا، لكنَّه امتنَّ على عبادِه بها جعلَه وسيلَة إلى ما أرادَه من عمارَة الدُّنيا للآخرَة، وجعلَ الاكتسَاب لهذِه الحظُوظ مباحًا لا ممنوعًا، لكِن على قوانِين شرعيَّة هيَ أبلَغ في المصلَحة وأجرَى على الدَّوام مما يعدُّه العبدُ مصلحَة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ولو شاء لمنعنَا في الاكتسَاب الأخرَويِّ القصدَ إلى الحظوظِ، فإنَّه المالِك وله الحجّة

البالغة،ولكنّه رغّبنا في القيام بحقوقِه الواجبَة علينا بوعدٍ حظّي لنا وعجّل لنا من ذلِك حظوظًا كثيرَة نتمتّع بها في طريق ما كلفنا به،فبِهذَا اللّحظ قِيلَ إنَّ هذه المقاصد توابعٌ، وإنَّ تلكَ هيَ الأصُول، فالقسمُ الأول يقتضِيهِ محضُ العبودية، والثَّاني يقتضِيهِ لُطفُ المالِك بالعبِيد " [1].

فهذِه البشريَّة التيِّ اعتدَّ بها الشرعُ واعتبرَها؛ والتي لا تخرُج عن الإطَار المأذُون فيه شرعًا، تجعلُ الإنسان في طِيبٍ من العيشِ في حيَاتهِ كلِّها، وذَلك لمن تدبَّر وتفكَّر في رحمة الله بعبادِه ولطِفِه بهم، وهو أرحَم الرَّاحمين.

كما أنَّ النفس تفرح وتسعَد بحصولِ محبوبَاتها من أمور الدُّنيا، فكذلِك يحصلُ لها من الحُزن البشَري عند فوَات مَصالِحِهَا أو فراق الأحبَّة من الآباء والولدان والأزواج والخلاَّن، أو مرضٍ أو إصابة بمكروه وضرَر.

وهذَا أيضًا حظٌ بشريٌّ طبيعيٌّ أَذِن الشرعُ فيه وجعل لهُ حدّاً ينبغي أن لا يُتعدَّى ولا يُتجَاوز إلى السخطِ والجزَع وعدَم الرِّضَا بالمقدور؛ لأنَّه يؤدِّي إلى معارضَة حِكمَة البارِي عزّ وجلّ، وحِينهَا يندَفِع صاحبُها إلى أعمال غير مشروعة من آثار الجاهليَّة الأولى تُنبئُ عن حال القلب من عدم الرِّضا بالقضَاء والقدر، وقَد نَهَى النَّبيُّ ﷺ عن هذه الأعمال بقوله : « لَيسَ مِنَّا مَن ضَرَبَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعوَى الجَاهِلِيَّة » [2].

(1) الموافقات (2/ 178-179).

(2) أخرجه البخاري (1235، 1236، 3331) ومسلم (103).

ومن النتائج الوَخيمة المترتِّبة عن هذا الأمر أنَّ صاحبها يعيشُ معيشَة ضنكة وحياة ضيقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:124].

و المراد بالذِّكر في الآية الذّكر العامّ لا ذِكر اللسان فقط، وهو القيام على الشرعِ والعيشُ بهذا الدِّين في كلِّ جُزئيَة من جزئيَات الحياة، وفي كلِّ حالٍ من الأحوَال التي ذكرنَاها سابقا؛ أو بعبارة أخرى" القيام بالعبودية التي يقتضيها الحال" .

ولَقد كانت حياة النَّبيِّ ﷺ على هذَا النَّمط حيث كانَ يُعطي لِكلِّ حالٍ حقَّها من العبوديَّة بدون إفراط ولا تفريط؛ ومن ذلكم ما حصَل له عند مَوت ابنِهِ إبراهيم، فعن أَنس ﷺ قَال : « دَخلنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ عَلَى أَبِي سَيفٍ القَين؛ وَكَانَ ظِئرًا لإِبرَاهِيمَ عليه السلام فَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ إِبرَاهِيمَ فَقبَّلَهُ وَشمَّهُ ثُمَّ دَخلنَا عَلَيهِ بَعدَ ذَلِكَ وَإِبرَاهِيمُ يجُودُ بِنَفسِهِ، فَجَعلَت عَينَا رَسُولِ الله ﷺ تَذرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ: وَأَنتَ يَا رَسُولَ الله ؟! فَقَالَ:يَا ابنَ عَوفٍ إِنهَا رَحمَةٌ، ثمُ أَتبَعَهَا بِأُخرَى؛ فَقَالَ: إِنَّ العَينَ تَدمَع وَالقَلبَ يحَزنُ وَلا نَقُولُ إِلا مَا يُرضِي رَبَّنَا وإِنَّا بِفرَاقِكَ يَا إِبرَاهِيمُ لَمحزُونُون»(1)

(1) أخرجه البخاري (1241) ومسلم (2315)

فبكاؤه عليه الصلاة والسَّلام كان رحمةً منه بولده حين رآه يجود بنفسه بين يديهِ،وسمَّى نزُول الدَّمع من العين رحمةً، لأنَّه ممَّا أذن الله فيه لعباده لمَّا علِم أنهَّم لا طاقة لهم في تحمُّل المكروه والمصائِب إلا بنزول الدَّمع تخفيفًا عنهم عند الابتلاءِ، وهذَا لا يُنافي حُصُول الرِّضا في القلب في آنٍ واحد، كما بيّن رسول الله ﷺ ذلك لمّا قال: « وَلا نَقُولُ إِلا مَا يُرضِي رَبَّنَا ». فانتقل الرِّضا القَلبي إلى سكونِ الجوارِح.

فالمعوَّل كلّه عَلى الرِّضا القَلبي، إذ هو الذّي يدفَع الجوارح إلى حمد الله وشُكره والقيام بعبوديته على أتمِّها، واستكثار فضل الله وعطائِه، وفي مقابل ذلك يحجزها ويمنَعها عن التضجّر والتسخّط على القضاء والقدر، فتنقلِب حياة العبد إلى جنَّة في الدنيا قبل الآخرة، ولا يَعبأُ بعدها لفوات حظوظه من الدنيا ويحتسب ما نقصه منها حظًّا عند ربّه في الآخرة،وهذا المقام جسّده رسول الله ﷺ وهو سيد البشريَّة جمعاء، وذلك في وصف عُمر بن الخطاب ﷺ لحاله حينما استأذن في الدُّخول عليه في قصة إيلائه ﷺ لنسائِه، حيث قَال : «... فَدَخلتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَإِذَا هُو مُضطَجِعٌ عَلَى رِمَالٍ حَصِيرٍ لَيسَ بَينَهُ وَبينَهُ فِرَاشٌ قَد أَثَّر الرِمَالُ بِجَنبِهِ مُتَّكِئٌ عَلَى وِسَادَةٍ مِن أَدمٍ حَشوُهَا لِيفٌ... فَرَفَعتُ بَصَرِي في بَيتِهِ فَوالله مَا رَأَيتُ فِيهِ شَيئًا يَرُدُّ البَصَرَ غَيرُ أهبَةٍ ثَلاثَةٍ، فَقُلتُ:أُدعُ الله فَليُوسِّع عَلَى أُمَّتِكَ فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُوم وُسِّعَ عَلَيهِم وَأعطُوا الدُنيَا وهُم لا يَعبُدُونَ الله –وَكَانَ مُتَّكِئًا– فَقَالَ:أَوَفِي شَكٍ أَنتَ يَا

بنَ الخطَّابِ؟! أُولئِكَ قومٌ عُجِّلَت لهمُ طيِّباتُهم في الحيَاةِ الدُنيا،فقُلتُ: يا رَسُولَ الله استَغفِر لي »(1).

فعدَّ عمر ﷺ هذا الذي قالَه ذنبًا وخطيئَة؛ لأنَّه لم يلتفِت إلى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:131]، ونظرَ إلى ما عندَ الكفَّار من سعَة في الرِّزق والمال، ولذلك طلَب من رسول الله ﷺ أن يستغفِر له.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال:« نَامَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَد أَثَّرَ في جَنبِهِ،فَقُلنا: يَا رَسُولَ الله لَو اتَّخَذنا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ: مَالِي وَمَا لِلدُنيَا مَا أَنَا فِي الدُنيَا إِلا كَرَاكِبٍ استَظَلَّ تَحتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»(2).

فالحياة الطيِّبة حقًّا هي الحياة الإيمانيَّة التيِّ تَعمُر القلب وتملؤه بالرِّضا ومحبة الله والقرب منه والأنس به، ثم تدفَع الجوارح بعدها نحو الطَّاعة والعبادَة، وتجعلُ صاحبَها ينصرِف إلى عمارة آخرَتِهِ وعَدم الانشغَال بالدُّنيا الزائلَة، ويصير كلُّ ما فاتَه منها قربَة إليه عزّ وجلّ، فعن عائشة - رضي الله عنها- قالت: «كَانَ النَّبِيُ ﷺ إِذَا دَخَلَ عَلَيَّ قَالَ : هَل عِندَكُم طَعَامٌ ؟ فَإِذَا قُلنَا لا، قَالَ: إِنِّي صَائِم »(3). فحقّق

(1) رواه البخاري (2336) ومسلم (1479).

(2) أخرجه الترمذي (2299)، وابن ماجه (4999)، وانظر "الصحيحة " للألباني برقم (438).

(3) أخرجه أبو داود (2099) والنسائي (2289)، وقال الألباني حسن صحيح، انظر صحيح سنن أبي داود رقم (2455).

عليه الصَّلاة والسَّلام طِيب العيش في أحوَال الدُّنيا العصِيبة، وازدادت عبوديته لربِّه، ولم يضعُف سيرهُ إلى الآخرة؛ لأنَّ المولى تبارك وتعالى جمَع شملَه وفِكرَه لمَّا جعَل الآخرَة همَّه ومُرَادَه وغَايتَه ومقصده.

قالَ الإمامُ الشاطبيُّ -رحمه الله-: "ومنها أنَّ صاحب هذه الحالة مستريحُ النَّفس، ساكنُ البال، مجتمعُ الشملِ، فارغُ القلب من تعب الدُّنيا، مُتوحدُ الوجهَة، فهو بذلك طيِّب المحيَّا، مجازى في الآخرة قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:97] الآية، ورُوِي عن جعفر الصادق أنَّه قال في الحياة الطَّيِّبة : هي المعرفة بالله وصدق المقام مع الله وصدق الوقوف على أمر الله، وقال ابن عطاء: العيش مع الله والإعراض عن سوى الله "(1).

وعن عَائشة – رضي الله عنها– قالَت: « كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتى تَفطَّر رِجلاهُ، قَالَت عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ الله أَتصنَعُ هَذَا وَقَد غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! فَقَالَ: يَا عَائِشَة! أَفَلا أَكُونُ عَبدًا شَكُورًا » (2).

فتحقّقت له الحياة الطيِّبة التي وعَد الله عزّ وجلّ بها عباده المؤمنين العاملين، واستوت عندَه أحوَال الدُّنيا كلّها؛ عسرها ويسرها حلوُها ومرُّها؛ وهذا ما يجبُ على العبدِ المسلم أن يسعَى للوصول إليه، وهو أن يكونَ عبدًا لله في أحواله كلِّها، راضيًا بما يجرِيهِ عليه ربُّه ومَليكُه من مقَادير، محُسنًا الظنَّ بِه وباختياره لَه، واثقًا في

(1) الموافقات (1/ 222).
(2) أخرجه مسلم (2820).

عدلِه وحكمِه، حامدًا له إحسَانَه ورحمتَه به، عابدًا له في كل حركَاته وسكنَاته، حتىَّ يصلَ إلى أعلى درجَة من درجات العبودية؛ وهِي الرِّضا التَّام عن الله عزّ وجلّ في كلِّ أحوَاله.

وقد تعجّب النَّبيُّ ﷺ من صَاحب هذه الحال فقال ﷺ:

«عَجَبًا لأَمرِ المُؤمِنِ!إنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ وَلَيسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إلا لِلمُؤمِنِ؛ إن أَصَابَتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيرًا لَهُ، وَإِن أَصَابَتهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيرًا لَهُ» (1).

يقولُ ابن القيم - رحمه الله- :"فأَحكم الحاكمين وأَرحمُ الرَّاحمين وأعلَم العالمين؛ الذي هو أرحمُ بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم، إذَا أنزل بهم ما يكرَهون كَان خيرًا لهم من أن لا ينزِله بهم، نظرًا منه لهم وإحسانًا إليهم ولطفًا بهم، ولَو مُكّنُوا من الاختيار لأنفسِهم لعجزُوا عن القيَّام بمصالحِهم علمًا وإرادَة وعملاً، لكنَّه سبحانَه تولىَّ تدبِيرَ أُمورِهم بموجبِ علمِه وحكمتِه ورحمته، أحبُّوا أم كرِهوا. فعرَف ذلك الموقنونَ بأسمائِه وصفاتِه، فلَم يَتَّهمُوه في شيءٍ من أحكَامِه، وَخفِيَ ذلك علَى الجاهلِ بهِ وبأَسمائِه وصفاتِه فنَازعُوه تدبيرَه وقدَحوا في حكمته ولم ينقادوا لحكمه، وعَارضُوا حُكمَهُ بعقولهم الفَاسدَة وآرائِهم الباطلَة وسياستهم الجائِرة، فلا لِربهِّم عرَفوا، ولا لمصَالحِهم حصَّلُوا والله الموفق .

(1) أخرجه مسلم (5318).

ومتى ظَفرَ العبدُ بهذه المعرفة سَكنَ في الدُّنيا قبل الآخرة؛ في جنَّة لا يشبِه نعيمُها إلاّ نَعيم جنَّة الآخرة، فإنَّه لا يزال راضيًا عن ربِّه، والرِّضا جنّة الدّنيا ومُستَرَاحُ العارفين، فإنَّه طيِّب النَّفس بما يجرِى عليها من المقادير؛ التي هيَ عينُ اختيارِ الله لهُ، وطمأنينتُها إلى أحكامِه الدِّينيَّة، وهذا هو الرضا بالله ربًّا وبالإسلامِ دينًا وبمحمدٍ رسولاً، وما ذَاقَ طعمَ الإيمان مَن لم يحصُل له ذلكَ، وهَذَا الرِّضا بحسبِ معرفتِه بعدل الله وحكمته ورحمته وحُسنِ اختياره، فكلَّما كان بذلِك أعرفَ كان بِه أرضَى "[1].

وتأكيدًا لما سبق أقول: إنَّ رحمة الله بنا كانت من بِدايَة خلق آدم عليه السلام؛ حيثُ خلَقَهُ بيَدِهِ وَأَسجدَ له ملائكته، ثمَّ زادَ الرَّب سبحانَه في إنعَامِهِ على عبده، فأسكَنَهُ الجنَّة وجعلَ له مِن نفسِهِ أنيسًا؛ كي تزيد متعته في الجنَّة، فحسدَه الشيطان علَى هذه النِّعمة العظمى، وعملَ بكلِّ ما في وسعِه لإخراجه منهَا، فسلك سَبيل الكيدِ والتَّلبِيس، وانتحَل طريقَ المكرِ والتدلِيس؛ فقالَ عن الشَّجرة التي قال فيها ربُّ العالمين : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف : 19] ، قال إبليس اللعين : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه:120]، وقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف:20]، وأكّـدَ تلبِيسه الماكِر بيمينِه الكاذبة: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ

(1) الفوائد (117-118).

ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف:21]، فنسيَ آدم عليه السلام وزوجُه أمرَ ربِّهما واستجابا لتلبيس إبليس: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:36]، فعاتبهما الله تعالى على فعلتِهما: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف:22]، فكانت نهاية أمرِهما: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة:36]، فأُهبِطَا إلى دار الضيق والنّغص والنّكد، بعدمَا كانا في دار النّعيم المُقيم؛ التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه:119]، حينها سارع آدم عليه السلام وزوجُه بالعودة إلى ربهِّما والاعتراف بذنبِّهما وطلَبِ المغفرة منه:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:23]، هذا من جهة.

ومن جِهة أُخرَى لمّا علِم سبحانَه بضُعف عبدِه وعَدَم قوَّتِه لمجَابهة أعظم الأعدَاء التيِّ تحُوم من حَـولِه - الشَّيطان والدُّنيا والهوَى - جعَل لَه جنَّة ينعَم فيهَا في الحيَاة الدُّنيا تعوِّضه عمّا سبَاه منه إبليس بمكره وخداعه، فقَال تعالى بعدَما أَهبَط آدم وزوجَه إلى الأرض: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة:38]، وقال في الآية الأخرى:

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ

هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه:123]، فلا يكون الأمن والسرُور والهداية والسعادة إلا لمن اتَّبع هُدى الله عزّ وجلّ، وبذلك يعيشُ العبدُ المؤمن في جنّة في الدُّنيا قبل أَن ينتقل إلى جنَّة الآخرة؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله–:" إنَّ في الدُّنيا جنَّة من لم يدخُلها لم يدخل جنَّة الآخرةِ". وكانَ يقول: " ما يصنَع أعدائِي بي؟! أَنَا جنَّتي وبستَاني في صدرِي، إن رحت فهي معِي لا تُفارقني، إنَّ حبسِي خُلوة وَقتلِي شهادَة وإخراجي من بَلدي سياحَة "(1).

فصل : مكانة الدين في حياتنا

لقَد بيَّن المولى تبارَك وتعالى مكَانة الدِّين في حياتِنا في العدِيد من الآيات القرآنية، وذلك لمن أَمعن نظَره وأنعَم فكرَه في كتاب الله، ونحن نَذكر ذلكِ – إن شاءَ الله – على شَكلِ نقاطٍ أساسيَّة، ونسأله تعالى أن يمِدَّنا بالعون والتوفيق على ذلك.

أولا : الدين نور وبرهان .

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ بالإيمانِ بعدمَا كان ﴿ميتًا وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:122]. هذا النُور هو العلم بالأحكام

(1) حكاهما عنه تلميذه البار ابن قيم الجوزية – رحمه الله – في كتابه: الوابل الصيب (ص 67)، مدارج السالكين (1/ 454).

الشرعية من حلال وحرام؛ الذِّي ينبغِي على العبدِ المسلِم أن يسِيرَ علَيه في عبادَاته ومعامَلاته، وأعظم حياة هي حياةُ القلوب بالإيمانِ والتوحيد والمعرفة بالله والعلم بالأحكام الشرعية، وكلُّ هذا قد جاءَنا وحياً من ربِّنا عزّ وجلَّ على لسان رسولِنا الأمين المبلغ عن رب العالمين كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران:164]، والضلال المبِين هو العيّ والجهل،فجعَل الله تعالى تزكيَة النُّفوس وتطهيرها بالدِّين لا بغيره، وسمَّى الحياة بدونه ضَلالا مبينًا .

فكلّ من ابتعدَ عن تحكيم الدِّين والعيش به في حياته فهو في ضلال وموت وهلاك، لأنَّه أضاع النّور الهادِي لهُ في طريقه وسيره، والمرشد لهُ إلى خَيرَي الدُّنيا والآخرة .

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء:80]،أي علماً بالأحكام الشرعية. فلا يعمل إلا وِفقَ ما جاءَ به الشرع، طالبًا الحجَّة والدَّليل في كلِّ عملٍ يتقرب به إلى ربِّه، غير مقلِّدٍ في أمر دِينهِ، جاعلاً قُدوتهُ وأُسوتهُ رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:21].

قال ابن القيِّم - رحمه الله -:"... فإذا عدِم القلب هذا النُّور صَار بمنزلَة الحيرَان الذِّي لا يدرِي أينَ يَذهب، فهُو لحيرتهِ وجهلهِ بطريقِ مقصودِهِ يَؤُمّ كلَّ صوتٍ يسمعهُ، ولم يسكن قلوبهم مِن العلمِ ما تمتنعُ به من دُعَاة البَاطل، فإنَّ الحقَّ متى استقرَّ في القلب قَوِيَ بهِ وامتنعَ مما يضرُّه ويُهلكه، ولهذا سمَّى الله الحجَّة العلميَّة سلطانًا وتقدَّم ذلك، فالعبدُ يُؤتَى من ظُلمة بصيرتهِ، ومن ضعفِ قلبه، فإذا استقرَّ فيه العلم النافِع استنَارت بصيرتُه وقَوِيَ قلبهُ، وهذَان الأصلان هُما قُطب السعادة؛ أَعني العِلم والقُوَّة، وقَد وَصفَ بهما سبحانَه المعلِّم الأَول جبريلَ - صلوات الله وسلامه عليه- فقال: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥﴾ [النجم:5]"[1].

ومما يُؤكد أنَّ هذا الدِّين نورٌ لصاحبه وحياةٌ له ما أشَار إليه المولى تبارك وتعالى في قولِه: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾ [المُلك:22].

فصاحب الدِّين يجمعُ الله تعالى له بين استقامتَينِ :

استقامة الجسم: وهي استقَامةٌ حسِّية، يحصل عليها العبدُ المسلم بقيامِه على شرع الله، والعمل بأحكامه في أقوَاله وأفعالِه وأحوالِه، فيُثمر له استقامةً في مشيهِ واعتدالاً سويًّا في سيرِه، لأنَّه على نورٍ من ربِّه لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً؛ قد

(1) مفتاح دار السعادة (1/ 127).

اتَّضحَت له معالم الطَّريق ولاحَت له أنوارُ الحقِّ من بعيد، فلا غمُوض يكتنفُه في مسيرته إلى ربِّه؛ كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: « قَد تَركتُكُم عَلَى البَيضَاءِ لَيلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنهَا بَعدِي إلاّ هَالِكٌ » [1].

فوصفَ عليه الصَّلاة والسَّلام الدِّين بالبيَاض؛ وهو الواضِح الجليُّ الذِّي لا غمُوض فيه، تلميحًا إلى أنَّ السَّائِر فيهِ يكُون مرتاحًا، سوَاء كَان في ليلٍ أو نهار، فالبيَاضُ دائمٌ لا يزُول وثابتٌ لا يتغيَّر.

استقامة الطريق: كما قالَ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:153]، وقد وصفَ الله تعالى صِراطَه بالاستقامَة في غير مَا آية من كتابه، ففِي أمِّ الكتاب: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة:6] . وقال تعالى في موسى وهارون: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾[الصافات:118]، وقال: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾[الأنعام:126]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:52].

فإذا اجتمَع للعبدِ استقامَة الجسمِ مع استقَامةِ الطَّريق كَان عبدًا ربانيًا، مُوَفَّقًا لكلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرة .

---

(1) رواه أحمد في " مسنده" (17182) وابن ماجة في"سننه" (1/ 52/ 45) والحاكم في" مستدركه "(1/ 175) وصحّحه الشيخ الألباني في " سلسلة الأحاديث الصّحيحة (2/ 648/ 937).

وعكسُ هذا ما وصفَ الله عزّ وجلَّ به الكفارَ في قولِه: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥﴾ [الأنبياء:65]، و"النَّكس قلب الشيء على رأسِه... النكسُ في الأشياءِ معنًى يرجعُ إلى قَلبِ الشيءِ وردِّه، وجعلِ أعلاه أَسفلَه ومُقدَّمه مُؤخَّرهُ، وانتكَسَ أي انقلَب على رأسِهِ، وهو دعاءٌ عليه بالخيبَة؛ لأنَّ من انتكَس في أمرِه فقَد خَابَ وخسِرَ "[1].

فكانَ حالهم ينَافي الاستقامَة التيِّ أُمِر العبَاد بهَا، ولذلكَ نُكِسُوا على رؤُوسِهم فنالُوا الخيبَة والخُسرَان، والله المستعان.

ومَن فهم هذَا وعَقِلهُ زادَ حرصُه على التَّمسُكِ بهذَا الدِّين والقيامِ عليه، بل يَصيرُ عندَه أكثَرَ من الهوَاء الذِّي يتنفَّسهُ، وهيهَات أن يستَغنيَ عن الهوَاء؛ لأنَّ به حياةَ جسمِه وبدنِه، فالدِّين من بابٍ أولى وأحرى، لأنَّ به حياةَ روحِه وقلبِه، ولذلكَ أمرَ الله عزّ وجلّ نبيَّه ﷺ بالاستمسَاك بهِ؛ فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الزُّخرُف:43].

فحثَّ عزَّ وجلَّ على المبالغة في التمسك بهذا الدين والقيامِ عليه، ولذَلك عبَّر بلفظَة (الاستمساك) دون غيرِها، لأنَّ فيها زيادة مبنى، والزيادَة في المبنى تدلُّ على الزيادَة في المعنى كما هو مقرّر في علم اللّغَة، وإلى هذا المعنى أشار النبيُّ ﷺ في قوله: «فَعَلَيكُم بِسُنَّتي وَسُنَّة الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهدِيِّين تمَسَّكُوا بهِا وَعَضُّوا عَلَيها

(1) لسان العرب (6/ 241).

بِالنَّوَاجِذ »[1]، وهذا أقصَى ما يصلِ إليهِ العبدُ من التمسُّك بالشيءِ الذِّي يرغَب فيه، ويحرص عليه حرصًا شديدًا حتىَّ ينتهيَ بهِ الأمرُ إلى أن يعضَّ عليه بنواجذِه، بعدمَا يستنفذَ جميعَ قوَّته وطاقتِه من أجلِه؛ لما فيه لَه من خيرٍ وصلاحٍ وفوزٍ وفلاح.

ويقُول المولى تبارك وتعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم:12]، فكلَّما كان تمسُّكنَا بدِين الله تعالى شديدًا وقويًّا كلَّما كانت حياة القلبِ أتمَّ وأكمَل، وهذَا ما يدفعُنا إلى بذلِ الجهد واستفراغِ الوِسع من أجلِ الحصُول على هذا المكسب العظيم؛وذلك بالقيَّام على هذَا الدِّين والعيش بهِ والثَّبات عليه .

ثانياً: الدين للإنسان بمثابة الروح للجسد

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾ [النحل:1]، هذه السورة يسمِّيها العلماء (سورةَ النِّعَم)، لأنَّ الله سبحانه وتعالى عدَّد فيهَا نِعمَه التيِّ أنعمَ بها على عبادِه، وأعظَم نعمَة بدأ بذكرهَا هي تنزيلُ الروح في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾[النحل:2]، فالرُوح في هذه الآية معناه الوحي، الذي هو

(1) رواه أحمد (4/ 126/ 17184) وأبو داود (2/ 610/ 4607) وصحّحه الألباني في" مشكاة المصابيح "(1/ 36/ 165).

هذا الدِّين القوِيم، فجعل سبحانه مكانَة الدِّين في حياتِنا كالرُوح بالنسبة للجسَد، وهل يصلُح الجسد بدون روح؟!

لا والله، لا قِيمةَ للجسدِ بدون روحٍ، ذلكَ لأنَّ الله تعالى ركَّب في الإنسان شيئَين بهما قوامه ودوامه: الجسم والروح، فبقاءُ الجسم وجمالُه بهذه الرُوح، ويظهرُ ذلك جليًّا حين تُفَارق هذه الروح الجسد، حيثُ يسارِع الجمِيع إلى دفنه والتخلّص منه، ولو كانوا من أقرَب النَّاس إليه في حياتِه، كذلك حال الإنسان بدونِ هذا الدِّين؛ لا جمالَ فيه ولا حياة تسرِي فيه ولا فائدة منه، وهُو بذلكَ عُرضةٌ لكلِّ ضرَر وشرٍّ في دينه ودنياه، ممَّا يؤدِي به إلى نفُور النَّاس منه، كما قال التَّابعيُ الجليل محمد بن واسِع - رحمه الله -:" لو كان للذُنوب ريحٌ ما قدر أحدٌ أن يجلسَ إليّ " [(1)].

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى:52]، يقول ابن القيم - رحمه الله -: "... فهُما حياتَان؛ حياةُ البدَن بالروحِ وحياةُ الرُوح والقلب بالنُور، ولهذَا سمَّى سبحانَه الوحيَ روحًا لتوقُّفِ الحياة الحقيقيَّة عليه، كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾ [النحل:2]، وقال: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر (56/ 158)، تاريخ الإسلام (1/ 975) وسير أعلام النبلاء (6/ 120) للذهبي.

أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴿١٥﴾ [غافر:15] ، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:52] ، فجعل وَحيَه روحًا ونورًا، فمَن لم يُحيِهِ بهذَا الرُوح فهو ميِّت، ومن لم يجعَل له نُورًا منهُ فهُو في الظُّلمات ما لهُ من نور"[1].

وقال أيضا: "...ولهذَا سمَّى الله سبحانَه ما أنزَل على رسولِه روحًا، لتوقُّف الحيَاة الحقيقيَّة عليه، ونورًا لتوقُّف الهدايَة عليه،قال الله تبارك وتعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴿١٥﴾﴾ [غافر:15]، في موضعين من كتابه، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:52] ، فلا روح إلا فيما جاء به، ولا نورَ إلا في الاستضاءة بهِ، فهوَ الحيَاة والنُّور والعصمَة والشفَاء والنجَاة والأَمن ... "[2].

ويقول أيضا في كلام بديعٍ له حول هذا المعنى: "والإنسان مضطَّر إلى نوعين من الحيَاة:

حياةُ بدنِه التيِّ بها يُدرِك النَّافع والضَّار، ويُؤثر مَا ينفعُه علَى ما يضرُّه، ومتى نقَصت فيهِ هذه الحياة نالَه من الألَم والضّعفِ بحسَب ذلك، ولذلكَ كانَت حياة المريضِ والمحزُون وصاحبِ الهمِّ والغمِّ والخوفِ والفقرِ والذُّلِ دون حياةِ من هُو معافى من ذلك.

---

(1) إعلام الموقعين (1/ 158).

(2) الصواعق المرسلة (1/ 151-152).

وحياةُ قلبِه ورُوحهِ التيّ بها يميِّز بين الحقِّ والباطلِ، والغيِّ والرشادِ، والهوى والضلالِ، فيختَار الحقَّ على ضدِّه؛ فتفِيد هذه الحيَاة قُوَّة التَّمييز بينَ النَّافعِ والضَّارِ في العلومِ والإرادَات والأعمالِ، وتفِيد قُوَّة الإيمانِ والإرادَة والحبِّ للحقِّ، وقُوَّة البُغضِ والكَراهةِ للبَاطل، فشُعورُه وتمييزهُ وحبُّه ونفرتُه بحسب نصيبِه من هذه الحياة، كما أنَّ البدن الحيَّ يكُون شعورُه وإحساسُه بالنَّافعِ والمؤلمِ أتَمَّ، ويكُون ميلُه إلى النَّافعِ ونفرَته عن المؤلمِ أعظَم؛ فهذَا بحسبِ حياةِ البدَن وذاكَ بحسبِ حيَاةِ القلبِ، فإذَا بطَلت حياتُه بَطلَ تمييزهُ، وإن كَان لهُ نوعُ تمييز لم يكن فِيه قوَّة يُؤثِر بها النَّافعَ علَى الضَّار.

وكما أنَّ الإنسان لا حياةَ له حتى ينفخَ فيه الملك الذي هو رسُول الله من روحه؛ فيصِير حيًا بذلكَ النَّفخ، وكان قبلَ ذلك من جملَة الأموات، وكذلِك لا حياةَ لرُوحه وقلبِه حتىَّ ينفُخ فيه الرسول ﷺ من الرُوح الذِّي أُلقيَ إليه، قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ ﴾ [النحل:2] ، وقال أيضا: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر:15] ، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:52]، فأخبر أنَّ وحيَه روحٌ ونُورٌ. فالحيَاة والاستنَارة موقُوفة على نفخِ الرَّسولِ الملكِيِّ والرسول البشرِيِّ، فمن أصابَه نفخُ الرَّسولِ الملكيِّ ونفخُ الرَّسول البشريِّ حصلَت له الحَياتان، ومن

حصَلَ له نفخُ المَلَك دون نفخِ الرَّسول حصَلت له إحدَى الحياتَين وفاتَته الأُخرى، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:122] ، فجمعَ له بين النُّور والحياة، كما جمع لمن أعرَض عن كتابِه بين الموت والظُّلمة "[1].

ثالثاً الدِّين في حياتنا كالغيث النافع لحياة الأرض

ويدُلّ عليه قوله ﷺ: « مَثَلُ مَا بَعَثَني الله بِهِ مِن الهُدَى وَالعِلمِ كَمَثَلِ الغَيثِ الكَثيرِ أَصَابَ أَرضًا فَكَانَ مِنها نَقِيَّةٌ قَبِلَت المَاءَ ؛ فَأَنبَتَت الكَلأَ وَالعُشبَ الكَثير... »[2] الحديث، "فشبَّه النبيُّ ﷺ العلمَ الذِّي جاءَ به بالغَيث، لأنَّ كلاًّ منهما سبب الحياةِ؛ فالغيثُ سببُ حياةِ الأبدَان، والعِلمُ سببُ حياة القلُوب"[3].

قال الحافظُ ابن حجَر – رحمه الله –:" قَال القرطبيُّ وغيرُه: ضرَب النبيُّ ﷺ لِمَا جاءَ به من الدِّين مثلاً بالغيث العام الذِّي يأتي النَّاس في حال حاجَتهم إليه، وكذَا كان حال النَّاس قبل مبعثِه، فكمَا أنَّ الغيثَ يحيِي البلَد الميِّت فكذَا علُوم الدِّين تحيِي القلب الميِّت..."[4].

وقَال ابن القيِّم – عليه رحمة الله –:"...ولابدَّ من الوحيِّ الذِّي به الحياة الحقيقيَّة الأبديَّة، **وهو أولى باسمِ الرزقِ من المطر**؛ الذي به الحياةُ الفانية المُنقضية فما ينزلُ

---

(1) الفوائد (219).
(2) أخرجه البخاري (79) واللّفظ له، ومسلم (2282).
(3) الرّسالة التّبوكية لابن القيّم (55).
(4) فتح الباري (1/ 177).

مِن فوق ذلِك من الوحيِّ والرحمَة والألطافِ والموارد الربانيّة والتنزّلات الإلهيّة وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق... "[1].

وبقدرِ ما يكُون الدِّين متجسّدًا في حياتِنا بقدرِ ما يحيا القلبُ ويطمئنُّ، مِصداقًا لقولِه تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم:24]، والأصلُ الثابتُ هو التّوحيدُ والعقيدة اللذّان إذا تمكّنا من القلب فإنهما يُثمرَان الأعمال الصالحَة، فتكُون حياةُ القلبِ أصلا وأساسًا للأعمالِ الصالحَة؛ وكلّما قوِيَ تمكُّنُ الأصلِ في القلبِ وتغلغُله فيه كلّما كثُرت الأعمال الصالحة التي تجعَل العبدَ في ذكرٍ دائمٍ لله تعالى، لأنّه بدونِه يَكونُ ميّتًا، كما قَال رسُول الله ﷺ :« مَثلُ الذِّي يَذكُرُ رَبّهُ وَالذِّي لا يَذكُرُ رَبّهُ مَثَلِ الحَيِّ وَالمَيِّت »[2].

وكم بينهُما من تفاوت؟! وسبب ذَلك هو حيَاة القلبِ الذِّي يُعتَبر المحلَّ الصَالحَ والمحرِّك للجوارحِ، فإِن كانَ حيًّا اندَفعت الجوارِح نحو الخَير، كما قَال تعالَى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:25] ، قال الحافِظ ابن رجبٍ-رحمه الله-:" فالإيمان القائِم بالقلوبِ أصلُ كلِّ خيرٍ وهُو خيرُ ما أُوتيهُ العبدُ في الدُّنيا والآخرة، وبه يحصُل له سعادَة الدنيا والآخرة والنجاة من شقاوة الدنيا والآخرة،

(1) بدائع الفوائد (1/ 125).

(2) أخرجه البخاري (6044). ورواه مسلم (799) بلفظ "مثل البيت الذي يذكر فيـه الله..." الحديث.

ومتى رسَخ الإيمانُ في القلب انبعثَت الجوارِح كلُّها بالأعمالِ الصالحةِ، واللِّسان بالكلامِ الطيِّب، كما قال النبي ﷺ : « أَلا وَإِنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُهُ وَإِذَا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُهُ، أَلا وَهِيَ القَلب»[1]، ولا صَلاح للقلبِ بدونِ الإيمان بالله وما يدخُل في مسمَّاه من معرفة الله وتوحيدِهِ، وخشيته ومحبته ورجائه، وإجابتِه والإنابَة إليه والتوكل عليه، قالَ الحسن : ليسَ الإيمانُ بالتَّمني ولا بالتَّحلِي، ولكنَّه بما وَقرَ في الصدُور وصدَّقتهُ الأعمال، ويشهدُ لذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ [الأنفال:2-3]، وفي هذا يقولُ بعضهم :

ما كل من زوق لي قوله ۞ يغرني يا صاح تزويقه

من حقق الإيمان في قلبه ۞ لا بد أن يظهر تحقيقه

فإذا ذاقَ العبد حلاوة الإيمان ووجد طعمه وحلاوته، ظهر ثمرة ذلك على لسانه وجوارحه فاستحلى اللسان ذكر الله وما والاه، وسارعت الجوارح إلى طاعة الله فحينئذٍ يدخلُ حبُّ الإيمان في القلب كما يدخل حبُّ الماءِ البارد الشديد برده في اليوم الشديدِ حرُّه للظمآن الشديد عطشُه، ويصيرُ الخروج من الإيمان أكرَهَ إلى القلوب من الإلقاءِ في النار، وأمرَّ عليها من الصبر.

(1) البخاري (52) ومسلم (1599).

ذكر ابن المبارَك عن أبي الدرداء ﷺ أنَّه دخَل المدينة فقالَ لهم: "ما لي لا أرَى عليكُم يا أهل المدينة حلاوَة الإيمانِ، والذِّي نفسِي بيدِه لو أنَّ دُبَّ الغابة وجَد طعمَ الإيمانِ لرُئِيَ علَيه حلاوة الإيمان" .

لو ذاق طعم الإيمان رضوى ۞ لكاد من جوده يميـد

قد حملوني تكليف عهـد ۞ يعجز عن حمله الحديد

فالإيمان بالله ورسولِه وظيفة القلبِ واللسانِ ثمَّ يتبعُهما عملُ الجوارح..." [1].

وإن كانَ ميِّتًا شُلَّت الجوارحُ عن فعل الصّالحات وامتثالِ الطاعات، كما قال عزّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾ [الأعراف:58] ، وهذا الصنفُ منَ النَّاسِ لم ينتَفع بالغيثِ، فدَارت عليهِ الدَّائرة، وكَان عاقبَة أمرِه خسرًا، وهكذَا كلُّ من لم يعمَل بهذا الدِّين ولم ينتَفع بهذَا الغيثِ، فهُو كالأرضِ القِيعان لا تمسِكُ ماءً ولا تُنتجِ ثمارًا ولا تُنبتُ كلأً : « فَذلِكَ مَثُلُ مَن لَم يَرفَع بِذَلِكَ رَأسًا وَلَم يَقبَل هُدَى الله الذِّي أُرسِلتُ بِهِ» [2] كما قال رسول الله ﷺ .

رابعاً: الدّين للإنسان مثل الجلدِ للجسـم:

قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ [الأعراف: 175] ، في هذِه الآية فائدَة لطيفة وهي أنَّ هذا الدِّين للإنسان يعتَبر بمثابة

(1) لطائف المعارف، لابن رجب الحنبلي (252).
(2) سبق تخريجه ص (72).

الجلدِ للجسم يحميه من أن يتعرَّضَ لِمَا يَشِينهُ ويَضرُّه ويُذهبُ جمالَه وبهاءَه، فإذَا انسلخَ الجلدُ عنِ الجسمِ هلكَ وفسَدَ، وكذلكَ الأمرُ بالنسبة للإنسانِ إذَا تخلَّى عن دينهِ وجعلَه وراءَه ظِهريًا، وقد كَانَ ملتصِقًا بهِ لا ينفَكُّ عنهُ كالتصَاقِ الجلدِ بالجسدِ فإنَّه يَصِيرُ عرضَة لِكلِّ شرٍّ.وذَكرَ سبحانَه وتعَالى في هذِه الآيةِ لفظَةَ الانسلاخِ دُونَ مَا عداهَا من الألفَاظ للمبَالغةِ في شدَّة لُصوقِ الدِّين بصاحبِه، لكنَّه فعل عَكسَ ما كانَ يحبّه منه خالقُه، ثمَّ تجرَّد عنه حتىَّ صارَ عاريًا لاشيءَ يحميه، بعدَ ما كانَ ملازِمًا له ووصفًا من أوصافِه؛ يحمِيهِ ويَصُونهُ من أمراضِ الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، فماذَا حصَل بعدَ هذَا الانسلاخِ؟!

قال تعالى: ﴿مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف:175] ، فبمُجرَّدِ أن ابتعَدَ عن دِين الله تعالى بدأتِ الأعداء تنهَالُ عليهِ من كلِّ جهةٍ، وأوَّل من يتَسلَّط عليه الشّيطَان؛ ذَلكَ العدوُّ اللَّدُود، والمُعانِد الكَنُود، الذِّي كانَ يترصَّد له دائمًا ليصُدَّه عن سبِيل الله، لأنَّه توعَّد بِغوايةِ بَني آدَم، قال تعالى حِكايةً عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص:82] ، وقال أيضا: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء:62] ، وقال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف:16-17]، فلمَّا انسلَخ العبدُ من آيات ربِّه تمكَّن منهُ عدوُّه، ولم تبقَ له حصانةٌ تحميهِ منه،

وتُعينُه على الوقوفِ في وجهِهِ ومحارَبتِه، لأنَّ السلاحَ الحقيقيَّ ضاعَ منهُ، فأصابه الضعفُ والعجزُ، ولهذَا أكثرَ الله تعالى في كتابِه من تحذيرِ عبادِه من كيدِ الشّيطان، فقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس:61]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر:6]، وقال: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه:117]، وقال أيضًا: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف:50]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام:142].

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ﴾ [الأعراف:176]، أي: رفعناه بهذهِ الآياتِ وبهذَا الدِّين، ولكنَّ الأرضيةَ فاسِدةٌ والمحلَّ غيرُ صالحٍ لقبولِهَا، ذلكَ لأنَّ الشّأنَ كلَّ الشّأنِ على صَلاحِ القُلوب، فمتىَ صَلحَ القلبُ صارَ محلاً لقَبُول الآياتِ والانتفاع بها وتحريك الجوارحِ للعملِ بها، ولهذَا قَال رسُول الله ﷺ: «أَلا وَإِنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدُت فَسَدُ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ القَلْب»[1].

---

(1) سبق تخريجه ص (75).

وقال ﷺ في الحديث الذي مرّ معنا من قبلُ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِن الهُدَى وَالعِلمِ كَمَثَلِ الغَيثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرضًا فَكَانَ مِنهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَت المَاءَ فَأَنبَتَت الكَلأَ وَالعُشبَ الكَثِيرِ...»(1).

قال ابن قيّم الجوزيّة – رحمه الله –: "...فإنَّ محلَّه لا تناسبه النعمَة المطلقَة التّامة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:23] ، فأخبر سبحانَه أنَّ محلَّهم غيرُ قابلٍ لنعمَتهِ، ومعَ عدَم القبُولِ ففِيهِم مانعٌ آخرُ يمنعُ وصُولها إليهِم، وهُو تولِّيهم وإعراضُهم إذا عرفُوها وتحقَّقُوهَا "(2).

ثم بيَّن المولى تبارك وتعالى المَوانعَ التِّي حالَت دون رِفعَتِهم بهذِه الآيات، فبدَأ بالدُّنيا التيِّ تعتَبرُ العدوَّ الثَّاني للإنسانِ بعدَ عداوةِ الشَّيطان، إذ إنَّ ما فِيهَا من شهوَاتٍ وملذَّاتٍ يصرِفُه عمَّا خُلقَ من أجلِه؛ فابتُلِيَ هذَا المسكينُ بِحُبِّ الخُلودِ فيهَا، والرُّكونِ إليهَا، والتعلُّق بهاَ، والحِرص الشَّديدِ عليهَا، قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأعراف:176]، وهَذا هو حَال الإنسَان مع الدُّنيا حيثُ جعلَها هيَ الحياة الدَّائمَة، وركَنَ إليها واطمَأنَّ إلى مَا فيهَا من طيِّباتٍ وزِينة؛ ممَّا جعلَ رؤيتَه إليهَا أنَّها دارُ خُلودٍ وقَرارٍ ودَوامٍ واستمرَارٍ، فأصبَح يجرِي وراءَها ويتعَبُ وينصَبُ لأجلِ تحصِيلِهَا، ولا يرضَى بالقلِيل منهَا، بل يحصُل لَهُ

(1) سبق تخريجه ص (72).
(2) الفوائد (250).

الجزَع والحزَن بفواتِ شيءٍ منها!، وقد أخبرَ رسُول الله ﷺ عن هذا التعلّق بالدُّنيا، فقال: « يُوشِكُ الأُمَمُ أَن تَدَّاعَى عَلَيكُم كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِن قِلَّةٍ نَحنُ يَومَئِذٍ؟! قَالَ: بَل أَنتُم يَومَئِذٍ كَثِيرٌ! وَلَكِنَّكُم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيلِ، وَلَيَنزِعَنَّ اللهُ مِن صُدُورِ عَدُوِّكُم المَهَابَةَ مِنكُم وَلَيَقذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُم الوَهَنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الوَهَنَ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوت »[1].

وأخرجَ البخاريُّ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: « لا يَزَالُ قَلبُ الكَبِيرِ شَابًّا فِي اثنَتَينِ: فِي حُبِّ الدُّنيَا وَطُولِ الأَمَلِ »[2]. وفي الصحيحين عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: « يَكبُرُ ابنُ آدم، وَيَكبُرُ مَعَهُ اثنَتَانِ: حُبُّ المَالِ وَطُولُ العُمُر »[3].

فحبُّ الدُّنيا والمالِ والخُلودِ إلى الأرضِ محبُوبٌ إلى النَّفسِ لأنَّها جُبلت عليهَا، ومنهَا دخَل إبلِيس اللّعين بوسوَستِهِ على أبينَا آدم عليه السلام، حيثُ قالَ لهُ: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ [طه:120]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ [آل عمران:14].

(1) أخرجه أبو داود (4297)،وصحّحه الشيخ الألباني في "الصحيحة" رقم (958).
(2) البخاري (6057).
(3) البخاري (6058) ومسلم (1047) بنحوه.

وقال تعالى في وصفِ الإنسان: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات:8]، وقال أيضا: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾ [الفجر:20] ، و عن أنس بنِ مالك ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« لَو أَنَّ لابنِ آدَمَ وَادِيًا مِن ذَهَبٍ لأَحَبَّ أَن يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ،

وَلَن يملأَ فَاهُ إِلا التُّرَاب، وَيَتُوبُ الله عَلَى مَن تَاب »[1] .

وهيهات هيهاتَ ! أن تكُون الدُّنيا هيَ المستقرَّ الدَّائمَ للإنسَان، فها هُو رسُول الله ﷺ يبيِّنُ لصحَابتِه ولأمَّتهِ النَّظرة الصحِيحةَ لهذِه الدُّنيا، فعن عبدِ الله بن عُمرَ بن الخطابِ - رضي الله عنهما - قَالَ : « أَخذَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَنكِبِي فَقَالَ : «كُن في الدُّنيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَو عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابنُ عُمَر يَقُولُ:إِذَا أَمسَيتَ فَلا تَنتَظِرِ الصَباحَ وَإِذَا أَصبحتَ فَلا تَنتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذ مِن صِحَّتِكَ لمِرَضِكَ وَمِن حَيَاتِكَ لِموَتِكَ»[2].

فأرادَ النبيُّ ﷺ أن يُلفِتَ انتباهنَا إلى حقيقةٍ لابدَّ أن يُدركهَا كلُّ واحدٍ منَّا؛ وهي أَنْ لا خُلودَ في هذهِ الدُّنيَا الفانيَة، ويزِيد الأمرَ بياناً، فيقُول عليه الصَّلاة والسَّلام: «مَا لي وللدُّنيَا، ومَا للدُّنيَا ومَالي، وَالذِّي نَفسِي بِيَدِهِ مَا مَثَلِي وَمَثَُلُ الدُّنيَا

(1) البخاري (607) ومسلم (1048).

(2) رواه البخاري برقم (6035) .

إلا كَراكِبٍ سَارَ في يَومٍ صَائِفٍ فَاستَظَلَّ تَحتَ شَجرَةٍ سَاعَةً مِن نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[1].

وكان ﷺ دائماً يوجّه أصحابه إلى النَّظرة الصّحيحة للدّنيا، وأنّها دارُ معبرٍ وممرّ لا دارُ بقاءٍ ومستقرّ!، وأنَّ حقيقَة العيشِ إنَّما تكُون في الآخرَة، فعن سهلِ بن سعدٍ السّاعِدِي رضي الله عنه قال: « جَاءَنَا رَسُولُ الله ﷺ وَنحنُ نَحفِرُ الخَندَقَ وَنَنقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكتَادنا (وفي رواية مسلم: أَكتَافِنَا) فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « اللَّهُمَّ لا عَيشَ إلا عَيشُ الآخِرَة فَاغفِرِ للمُهَاجِرِين وَالأَنصَار »»[2].

وحذّرنا رسول الله ﷺ من مغبّة الاغترار بالدُّنيا والانخداعِ بما أخرجَهُ الله لنَا من بركَات الأرض؛ فقال: « إِنَّ أَكثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيكُم مَا يُخرِجُ الله لَكُم مِن بَرَكَاتِ الأَرضِ، قِيلَ: وَمَا بَرَكَاتُ الأَرضِ؟ قَالَ:«زَهرَةُ الدُّنيَا» »[3]، وقال مُقرّرًا هذه الحقيقَة: « فَوَ الله مَا الفَقرَ أَخشَى عَلَيكُم، وَلَكِن أَخشَى عَلَيكُم أَن تُبسَطَ عَلَيكُم الدُّنيَا كَمَا بُسِطَت عَلَى مَن كَانَ قَبلَكُم، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهلِكَكُم كَمَا أَهلَكَتهُم»[4].

---

(1) أخرجه ابن حبّان (6352) والبيهقي في "شعب الإيمان"(7/ 312) وصحّحه الشّيخ الألباني في " صحيح الجامع " (رقم: 10606).

(2) رواه البخاري (3586) ومسلم (1804) .

(3) رواه البخاري (6063).

(4) رواه البخاري (3791) ومسلم (2961).

فَبيَّنت هذه النُّصوص النَّبويّة أنَّ الانشغال بالدُّنيا يُلْهي عن الآخرة، وأنَّ من ركنَ إليهَا واطمأنَّ بهَا، فإنَّه لن يذُوق طعمَ الرَّاحةِ فيهَا، ولَن يرضَى بما قدَّرهُ الله لهُ فيها، بَل هُو في حسرَة علَى الدَّوام وضنكٍ من العيشِ، ولا تحصُل لهُ الحياةُ الطيِّبة التي تكُون بالإيمان بالله والاشتغَال بالأعمال الصالحَةِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ١٩﴾ [الإسراء:19].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قالَ رسول الله ﷺ: «مَن كَانَت الآخِرَةُ همَّهُ جَعَلَ الله غِناهُ فِي قَلبِهِ وَجمَعَ لَهُ شملَهُ وَأَتتهُ الدُنيا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَن كَانَت الدُّنيا همَّهُ جَعَلَ الله فَقرَهُ بَينَ عَينَيهِ وَفَرَّقَ عَلَيهِ شملَهُ وَلَم يُؤتِهِ مِن الدُّنيا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ»(1).

يقُول ابن القيِّم- رحمه الله -: "إذا أصبَح العبدُ وأمسى وليسَ همُّه إلا الله وحدَه، تحمَّل الله سبحانه حوائجَه كلَّها وحمَلَ عنهُ كلَّ ما أهمَّه، وفرَّغ قلبه لمحبَّته ولسَانه لذكرِه وجوارِحهُ لطاعتِه، وإنِ أصبَح وأمسىَ والدُّنيا همُّه، حمَّلَه الله همُومَهَا وغُمومَهَا وأنكَادهَا، ووكَّلهُ إلى نفسِهِ، فشغَل قلبَه عن محبَّتِهِ بمحبَّة الخلقِ، ولسانَه عن ذكرِهِ بذكرهِم، وجوارِحهُ عن طاعتِهِ بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدَح كدحَ الوحشِ في خدمةِ غيرِه، كالكيرِ ينفُخ بطنَه ويعصُر أضلاعَه في نفعِ غيرِه"(2).

---

(1) أخرجه الترمذي (2465)وحسنه الشيخ الألباني في "الصحيحة" (949).
(2) الفوائد (107).

ومن نظَر في القرآن الكريم فإنَّه لا يجدُ آيةً فيهَا ذكرٌ للدُّنيا على سبيلِ المدح والترغيب فيها؛ بَل لا تُذكرُ إلا في سِياقِ الذَّم والتّقبيح لها، والتَّحذيرِ من الحرصِ عليهَا والتزهيد فيهَا، قال تعالى:﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشورى:36].

وقال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد:20].

وقال أيضا: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرعد:26].

وقال عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [يونس:8].

وقال عزّ من قائل: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف:45].

هذِه التَّربيَة النَّبويةُ والنظرَة الصحيحَة للدّنيا وجدنَاهَا قد تجسَّدت حقيقةً في حياةِ الصحابَة، من خلالِ ما نُقل إلينَا من أقوالهم وأحوالهم، ومن أمثلة ذلك ما ثبتَ عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه حيثُ يقولُ: " ارتحَلَت الدُّنيا مُدبِرَةً وارتحلت

الآخِرَةُ مُقبلَةً، وَلِكُلِ وَاحِدةٍ مِنهما بَنُون!، فَكُونُوا مِن أَبنَاءِ الآخِرَة وَلا تَكُونُوا مِن أَبناءِ الدُّنيَا، فَإِنَّ اليَومَ عَمَلٌ وَلا حِسَاب وَغَدًا حِسَابٌ وَلا عَمَل "[1].

"ولهَذَا نبذهَا رسُول الله ﷺ وراءَ ظهرِه هو وأصحابه وصرَفوا عنها قلوبهم،وطرحُوها ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلُوا إليها، وعدُّوهَا سجنًا لا جنَّة، فزَهدُوا فيها حقيقَة الزُّهدِ، ولو أرادُوهَا لنالوا منهَا كلَّ محبوبٍ، ولوصلُوا منها إلى كلِّ مرغوبٍ، فقَد عُرِضَت عليهِ مفاتِيحُ كنُوزها فردّها، وفاضَت على أصحابِهِ فآثرُوا بها ولم يبيعوا حظّهم من الآخرة بها،وعلموا أنها معبر وممّر لا دار مقام ومستقّر، وأنَّها دار عبُور لا دار سُرورٍ، وأنهَّا سحابة صيفٍ تنقشع عن قليل، وخيَال طيفٍ ما استتَمَّ الزِّيارَةَ حتىَّ آذنَ بالرَّحيل "[2].

فكان توجُّه الصحابَة ﷺ إلى الآخرَة توجُّهاً كلِّيًا جعلهُم لا يحرصُون على هذه الدُّنيا التي مآلهُا الزَّوال، وهذَا كلُّه لمَّا علِموا حقيقَتها، فصرَفوا جهُودهم إلى مَا ينفَعهُم في دنيَاهُم وأخرَاهم، وهو العيشُ بهذَا الدِّين، وتيقَّنوا أنَّ حياتهُم به، فسَعوا إلى الأعمَال التي تُقربهُم من ربهِّم وتَزيدُهم في الأجُور والثَّواب، واشتَغلُوا بعمارَة الآخرَة عن الدُّنيا وبهرجِها؛ لأنَّها دار القرَار والخلُود، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت:64] ، أي: هي الحياةُ الحقيقيَّة، فالسَّعيدُ من كانت أعمَاله للآخرَة

(1) رواه البخاري (5/ 2358).

(2) الفوائد (120).

ولو وجدَ في حياتِه الدُّنيا صُعوبَةً في العيشِ بنظرتنَا البشريَّة القاصرَة، لأنَّ الابتلاءَ في هذه الدُّنيا من سُننِ الله الكونيَّة التي قضاهَا وقدَّرها على عباده[1].

وتحديدُ الهدَف في الدُّنيا بجعلِ الآخرة نصبَ الأعينِ يُهوِّن على العبدِ مشاقَّ الحيَاة وتعبَها، لأنَّه يعلَم يقينًا أنَّه سينتَقل إلى حياةٍ أخرَى وعيشٍ ونعيمٍ مقيم عند ربِّ العالمِين، وسيُبدلِهُ عيشًا آخرَ يُنسِيه ما لحقَهُ من الابتلاءِ والشقَاء في دُنياه، ففِي صحيحِ مسلِم عن أنسِ بن مالك ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «...وَيُؤتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤسًا في الدُّنيَا مِن أَهلِ الجَنَّة فَيُصبغُ صَبغَةً في الجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابنَ آدَمَ هَل رَأَيتَ بُؤسًا قَطُّ؟! هَل مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟!

فَيَقُول: لا وَاللهِ يَا رَب!، مَا مَرَّ بِي بُؤسٌ قَطُّ وَلا رَأَيتُ شِدَّةً قَطُّ!»[2].

ولَمَّا كانَت نظرةُ الصحابَة سليمَة،لم يلتفِتُوا إلى تلكَ الشدَّة في حياتِهم بَل دفَعهم ذلك إلى الاستزَادة من أعمالِ الخيرِ والبرِّ، وتحصيل أعلى الدرجات بالتَّسابق في ميدَانِ الطَّاعاتِ والأعمال الصَّالحَات، فعن أبي هريرة ﷺ: «أَنَّ فُقَرَاءَ المُهَاجِرِينَ أَتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ العُلَى وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ، فَقَالَ: وَمَا ذَاكَ ؟، قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُوم وَيَتَصَدَّقُونَ وَلا نَتَصَدَّقُ وَيُعتِقُونَ وَلا نُعتِقُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَفَلا أُعَلِّمُكُم

---

(1) وسأفرد الكلام على هذا الأصل المهمّ في عدد من أعداد هـذه السّلسلة الطّيّبة المباركـة - إن شاء الله تعالى - .

(2) رواه مسلم (1986).

شَيئًا تُدرِكُونَ بِهِ مَن سَبَقَكُم وَتَسبِقُونَ بِهِ مَن بَعدَكُم ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله ! ، قَالَ: تُسَبِّحُونَ وَتَحمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ مَرَّةً.

قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ المُهَاجِرِين إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ، فَقَالُوا سَمِعَ إِخوَانُنَا أَهلُ الأَموَالِ بِمَا فَعَلنَا فَفَعَلُوا مِثلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ذَلِكَ فَضلُ الله يُؤتِيهِ مَن يَشَاءُ »[1].

فلم يلتفِت فُقراءُ المهاجِرين إلى ما عِند الأغنيَاء من أَموالٍ وخيرَات دُنيويَّة، ولم يشتكُوا إلى رَسُول الله ﷺ حالَهم من الفَقرِ وما يجِدُونَه من شدَّةٍ في عيشِهم مقارنَة بالأغنيَاء، بل كانَت نظرتُهم أُخرويَّة صَرفةً مجرَّدَة عن حُظوظِ الدُّنيا الفَانيَة، فنَظروا إلى حال الأغنيَاء من جِهة ما سبقُوهم بِهِ من الصَّدقَة والعتقِ، وأنهَّم لا يملِكونَ ما يَصِلون بِهِ إلى تلك المرَاتب؛ فكَان حُزنهم علَى فواتِ أجرِ الصَّدقةِ لا علَى حظوظِ الدُّنيا الزائِلة؛ كما قال تعالى في الآية الأُخرَى واصفًا حالهَم حينَما لم يتمكَّنوا من الجِهاد بسبَب فقرِهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢﴾ [التوبة:92]، فأرشَدهُم رسُول الله ﷺ إلى البَديلِ الذِّي في وسعِهم وهُو الذِّكرُ والتَّسبيحُ، فلمّا سمعِ الأغنيَاء بذلكَ فعلُوا مثلَ ما فعَل الفُقراء، فجاءُوا مرَّة أخرَى إلى النَّبيِّ ﷺ فذكرُوا له ما فعَل الأغنيَاء؛ عندئذٍ بيَّن لهم رسُول الله ﷺ أنَّ

---

(1) رواه مسلم (595).

ذلِك فضلُ مِن الله تعالى يختصُّ به من يشاء من عبادِه، وأنَّ باب التَّنافُس ههُنا محدُودٌ، لأنَّه قد يُفضِي إلى معارَضة قضاءِ الله وقدَرِه وإساءَة الظَّنِّ بالله عزّ وجلّ .

هكذا كانَ حالُ الصحابَة -رضوان الله عليهم- مِن الإقبالِ علَى الآخرَة وعلُوِّ الهمَّة في السعيِ إلى ما يقرِّبهم من الجنَّة ويُباعدُهم منَ النَّار، ولذَلك لا تجدُ أحدًا منهُم سأَل النبيَّ ﷺ حاجَتهُ وشدَّةَ فاقَتهِ و قلَّة مؤُونتِه، بل وجدنَاهم يسأَلون النبيَّ ﷺ عن أفضَل الأعمالِ وأحبِّها إلى الله تعالى حتىَّ يسارِعُوا إلى القيَام بها، من ذلكم ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّه قال:« سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ قُلتُ: يَا رَسُولَ الله أَيُّ العَمَلِ أَفضَلُ؟! قَالَ: الصَلاةُ عَلَى مِيقَاتِهَا. قُلتُ: ثمَّ أَيُّ؟ قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَينِ. قُلتُ: ثمَّ أَيُّ ؟ قَالَ:الجِهَادُ في سَبِيلِ الله . فَسَكَتُّ عَن رَسُولِ الله ﷺ وَلَو استَزَدتُهُ لَزَادَني »[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ أعرابيًا أَتى النّبيَّ ﷺ فقَال: « دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلتُهُ دَخَلتُ الجَنَّة ؟ قَالَ: تَعبُدُ الله وَلا تُشرِكُ بِهِ شَيئًا وَتُقِيمُ الصَّلاةَ المكتُوبَةَ وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ المفرُوضَةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ. قَالَ: وَالذّي نَفسِي بِيَدِهِ لا أَزِيدُ عَلَى هَذَا شَيئًا أَبدًا وَلا أُنقِصُ مِنهُ!، فلَمّا وَلّى، قَالَ النَّبيُّ ﷺ: مَن سَرَّهُ أَن يَنظُرَ إِلى رَجُلٍ مِن أَهلِ الجَنَّة فَليَنظُر إِلى هَذَا!»[2].

(1) رواه البخاري (2630) .
(2) رواه البخاري(1333) ومسلم (1/ 44 رقم 14) واللفظ له.

وعن أبي برزة ﷺ قال:« قُلتُ: يا نبيَّ الله علِّمني شيئًا أنتفعُ به، قالَ:اعزل الأذى عن طَريقِ المسلِمين»[1].

وفي صحيحِ مسلِم من حديثِ مصعب بن سعد عن أبيهِ قال: « جاءَ أعرابيّ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالَ: علِّمني كلامًا أقولُه، قالَ: قُل لا إلَهَ إلاّ الله وحدَهُ لاشَريكَ لَهُ، الله أكبرُ كبيرًا والحمدُ لله كثيرًا، سُبحانَ الله ربِّ العالمَين، لاحولَ ولا قُوَّةَ إلاّ بالله العَزيزِ الحكيمِ، قالَ: فهؤلاءِ لِربِّي فمالِي ؟! قالَ: قُل اللَّهُمَّ اغفِر لي وارحمني واهدِني وارزُقني. قال موسى-راوي الحديث-:أمّا (عافِني) فأنا أتوهّم وما أدري »[2].

والأحاديث الواردَة في هذا المعنى كثيرَة ووفيرَة جدًّا، وهي تدلُّ علَى حِرص الصَّحابَة ﷺ على الخيرِ وعلَى ما يقرِّبهم من ربهِّم تبارك وتعالى.

فكانُوا بذلِك أسعدُ النَّاس وأكثرُهم تمسكًا بدِين الله، رَغمَ ما كانُوا فيه من شدَّة العيشِ من جهَة، وتآلب الكفَّارِ عليهم من جِهة أخرَى، ومَع ذلِك ضربُوا أروعَ الأمثِلة في التمسُّكِ بالدِّين والثبات عليه، فعن خبَّاب ﷺ قال: « أتَيتُ النبيَّ ﷺ وهُو مُتوسِّدٌ بُردَةً وهُوَ في ظِلِّ الكَعبَةِ، وقد لَقِينا مِنَ المُشرِكينَ شِدَّةً فقُلتُ: يَا رَسُولَ الله ألا تدعُو الله لنا!، فقعَد وهُو محمَرٌّ وجهُهُ، فقالَ: لقد كانَ مَن قبلَكُم ليُمشَطُ بِمشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِن لحمٍ أو عَصَبٍ مَا يَصرِفُهُ ذلِكَ عن دِينِه، ويُوضَعُ المِيشَارُ علَى مفرِقِ رأسِهِ فيُشَقُّ باثنَينِ مَا يَصرِفُهُ ذلِكَ عن دِينِهِ، وليُتِمَّنَ الله

(1) رواه مسلم (2618).
(2) رواه مسلم (2696).

هَذَا الأَمرُ حَتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعَاءَ إِلَى حَضرَمَوتَ ما يَخَافُ إِلا اللهَ - زاد بيان - وَالذِّئبَ عَلَى غَنَمِهِ » (1).

ولقد وقفَ الصحابَة رضي الله عنهم مواقِف جليلَة وقويَّة من أجلِ هذا الدِّين في وجهِ الكفَّار الذِّين حاولُوا إبعادَهم عن دِينهم، لكنَّهم لم يستطِيعوا إلى ذلك سبيلاً، لأنهَّم تربَّوا في مدرسةِ النبوَّة التي عرَّفهم فيهَا رسُول الله ﷺ قيمةَ الدِّين في حياتِهم، فبذَلوا من أجلِه الغالِيَ والنَّفيس، وصارُوا لا يُبالُون بالموتِ ولا بالأذيَّة إذا كانَ ذلك في جنبِ الله عزّ وجلّ، لأنهَّم يرجُون حياةَ الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:169]،، وقصَّة خُبيب الأنصاري رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين،خيرُ دليلٍ على تمسُّك الصحابَة بهذا الدِّين، والتَّضحيَة من أجلِه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بَعَثَ النَّبيّ ﷺ سَرِيَّة عَينًا وَأَمَّرَ عَلَيهِم عَاصِم بن ثَابت؛ وَهُوَ جَدُّ عَاصِم بن عُمَرَ بن الخَطَّابِ رضي الله عنه، فَانطَلَقُوا حَتىَّ إِذَا كَانُوا بَينَ عُسْفَان وَمَكَّة ذُكِرُوا لحيٍّ مِن هُذَيلٍ؛ يُقَالُ لهَمُ بَنُو لحِيَان، فَتَبِعُوهُم بِقَرِيبٍ مِن مَائَةِ رَامٍ فَاقتَصُّوا آثَارَهَم،حَتىَّ أَتَوْا مَنزِلاً نَزَلُوهُ، فَوَجَدُوا فِيهِ نَوَى تمَرٍ تَزَوَّدُوهُ مِنَ المَدِينَةِ فَقَالُوا: هَذَا تمَرُ يَثرِبَ! فَتَبِعُوا آثَارَهُم حَتىَّ لحَقُوهُم فَلَمَّا انتَهَى عَاصِم وَأَصحَابُهُ لجَؤُوا إِلَى فَدفَدٍ وَجَاءَ القَومُ فَأَحَاطُوا بِهِم، فَقَالُوا:لَكُمُ العَهدُ وَالمِيثَاقُ إِن نَزَلتُم إِلَينَا أَن لا نَقتُلَ مِنكُم رَجُلاً،

(1) أخرجه البخاري (3639).

فَقَالَ عَاصِم: أَمَّا أَنَا فَلا أَنزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ،اللَّهُمَّ أَخبِر عَنَّا نَبِيَّكَ،فَقَاتَلُوهُم حَتَّى قَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبعَةِ نَفَرٍ بِالنَبلِ، وَبَقِيَ خُبيبٌ وَزَيدٌ وَرَجُلٌ آخرَ؛ فَأَعطَوهُم العَهدَ وَالمِيثَاقِ؛ فَلَمَّا أَعطَوهُم العَهدَ وَالمِيثَاق نَزَلُوا إِلَيهِم فَلَمَّا استَمكَنُوا مِنهُم حَلُّوا أَوتَارَ قِسِيِّهِم فَرَبَطُوهُم بِهَا، فَقَالَ الرَجُلُ الثَالِثُ الذِّي مَعَهُمَا: هَذَا أَوَّلُ الغَدرِ، فَأَبَى أَن يَصحَبَهُم فَجَرَرُوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَن يَصحَبَهُم فَلَم يَفعَل فَقَتَلُوهُ، وَانطَلَقُوا بِخُبَيبٍ وَزَيدٍ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ؛ فَاشتَرَى خُبَيبًا بَنُو الحَارِث بن عَامِر بن نَوفَل، وَكَانَ خُبَيبٌ هُو قَتَلَ الحَارِثَ يَومَ بَدرٍ، فَمَكَثَ عِندَهُم أَسِيرًا حَتَّى إِذَا أَجمَعُوا قَتلَهُ؛ استَعَارَ مُوسَى مِن بَعضِ بَنَاتِ الحَارِثِ لِيَستَحِدَّ بِهَا فَأَعَارَته، قَالَت: فَغَفَلتُ عَن صَبِيٍّ لِي، فَدَرَجَ إِلَيهِ حَتَّى أَتَاهُ فَوَضَعَهُ عَلَى فَخِذِهِ، فَلَمَّا رَأَيتُهُ فَزِعتُ فَزعَةً عَرَفَ ذَاكَ مِنِّي وَفِي يَدِهِ المُوسَى، فَقَالَ: أَتَخشَينَ أَن أَقتُلَهُ؟ مَا كُنتُ لأَفعَلَ ذَلِكَ إِن شَاءَ الله، وَكَانَت تَقُولُ مَا رَأَيتُ أَسِيرًا قَطُ خَيراً مِن خُبَيبٍ؛ لَقَد رَأَيتُهُ يَأكُلُ مِن قِطَفِ عِنَبٍ وَمَا بِمَكَّةَ يَومَئِذٍ ثمرَةٌ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الحَدِيدِ وَمَا كَانَ إِلا رِزقٌ رَزَقَهُ الله، فَخَرَجُوا بِهِ مِنَ الحَرَمِ لِيَقتُلُوهُ فَقَالَ: دَعُونِي أُصَلِّي رَكعَتَينِ ثُمَّ انصَرفَ إِلَيهِم فَقَالَ: لَولا أَن تَروا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ مِنَ المَوتِ لَزِدتُ؛ فَكَانَ أَوَّلَ مَن سَنَّ الرَكعَتَينِ عِندَ القَتلِ هُوَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَحصِهِم عَدَدًا ثُمَّ قَالَ:

وَلَستُ أُبَالِي حِينَ أُقتَلُ مُسلِمًا ... عَلَى أَيِّ شَقٍّ كَانَ لله مَصرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِن يَشَأ ... يُبَارِكَ عَلَى أَوصَالِ شِلوٍ مُمَزَّعِ

ثمَّ قامَ إلَيهِ عُقبَةُ بنُ الحَارِثِ فقتَلَهُ وبعَثَ قُرَيشٌ إلى عاصِمٍ لِيُؤتَوْا بشَيءٍ مِن جَسَدِهِ يعرِفُونَه، وكَانَ عَاصِم قتَلَ عَظِيمًا مِن عُظَمَائِهِم يومَ بَدرٍ فبعَثَ اللهُ عَلَيهِ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِن الدَّبرِ فَحَمَتهُ مِن رُسُلِهِم فَلَم يَقدِرُوا مِنهُ عَلَى شَيءٍ »(1).

ومن أمثلة ذلِك أيضًا ما حدَث في غزوَة بَدرٍ الكُبرى، حيثُ وقفَ الصحابَة أمامَ جيشٍ عظيمٍ يفُوقهم عُدَّةً وعدَداً؛ يَزيدُون على ألفِ مُقاتلٍ، يفُوق عددَ الصحابَة بثلاثَة أضعَاف!، ومعَ ذلك آلَت الغلبَة إليهِم ﷺ، فما السِّرُّ في وقُوف الصحابَة ذلكَ الموقِف؟!

إنَّه تمسُّكهم بدِينهم، وثبَاتهم علَيه، وصبرُهم علَى مَا يلقَونَه من الأذيَّةِ فيهِ، لعِلمِهم ﷺ ويَقينِهم بأنَّ حيَاتهم وسعَادتهم لا تكُونُ إلاَّ بهذَا الدِّين.

ولقَد شهِد لهم بذَلكِ أعداؤُهم، كما حَكَى الله تعالى عنهم ذلك في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:49]، وحقيقةً كانَ هذَا الدِّين يجرِي فِيهم مجرَى الدَّم، وكَانَ أعزَّ علَيهم من كُلِّ شيءٍ، مِمَّا أوصلَهم إلى اليقِينِ التَّام بما هُم عليهِ، فأثمرَ لهُم ذلِك ثقةً بربِّهم وتوكُّلاً عليه وتَصدِيقاً بما وعدَهُم به: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:22].

(1) أخرجه البخاري (3858).

فرفعوا رايَة الدِّين عاليًا، وانتصرت عُدَّة المعرفة بالله تعالى والإيمان على عُدَّة السلاحِ والسِّنان، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة:22]، وهكذا كلُّ من قامَ بهذَا الدِّين علمًا وعملا ودعوَة إليه؛ فإنَّه سيُحفظُ بحفظِ الله لدِينهِ، مصداقًا لقولِ الحقِّ جلَّ جلالهُ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحِجر:9]، فقد أخبرَ سبحانهُ وتعالى بِأنَّ بقاءَ دينهِ محفوظاً إنَّما يكُون ببقاءِ القائمِين عليهِ والدَّاعين إليهِ، وبمقدارِ قيامِنا على هذَا الدِّين وحِفظنا لهُ ننَال من الله كلاءةً وحفظاً، والأمرَان متلازِمان، كمَا قالَ سيِّدُ الأَنام عليهِ الصَّلاة والسَّلام: «احفَظِ الله يحفَظكَ»[1]، فإذَا حفظَ العبدُ أوامِر الله تعَالى بامتثَالها والتزامِها على الوجهِ المشرُوع، واجتنَب نواهِيهُ بالكفِّ عنهَا، والبعدِ عن اكتسابها،وحفظِ حدودِه ولم يتعدَّى حِماهَا؛ فإنَّه يحصلُ علَى حفظِ الله تعالى.

وقالَ ﷺ: «لا تَزالُ طائفة مِن أُمَّتي قائِمةٌ بِأمرِ الله لا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم أو خَالَفَهُم حَتىَ يَأتِي أَمرُ الله وَهُم ظَاهِرُونَ عَلَى النّاسِ»[2]. وعن أبي عِنَبة الخولاني رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يَزالُ الله يَغرِسُ في هَذَا الدِينِ غرسًا يَستعمِلُهُم في طَاعَتِهِ»[1]، فأخبر نبيُّ هذه الأمَّة ﷺ أنَّه ستبقَى طائفةٌ قائمَة على هذا الدِّين، وهُم محفُوظُون منَ الله تعَالى حتىَّ يبقَى أمرُ الدِّينِ عاليًا ومُهيمِنًا، لا يمسُّه سوءٌ وشرٌّ إلى

---

(1) أخرجه أحمد (1/ 293/ 2696) والترمذي (2440) وغيرهما وصححه الألباني في "المشكاة" (5302) و"صحيح الجامع الصغير" (2516).

(2) رواه البخاري (3442) ومسلم (1037) واللفظ له.

أَن تقُوم السَّاعة وهُم كذلِك، وهذَا مَا يزِيدُ السَّائرَ في هذِه الطَّريق ثباتًا ويقيناً بأنَّه على حقٍّ، فيطمئِنُّ في سيرِه إلى ربِّه تبارَك وتعَالى.

وأمَّا إذَا انسلَخ العبدُ من دينِه فإنَّه يُسلَبُ حفظَ الله لهُ؛ لأنَّه لم يحفَظ دينَه، ويكُونُ بذلِك عُرضةً لتسلُّطِ العدوِّ الثَّالثِ علَيه، كمَا أخبرَ بذلِك المولى عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:176]، والهوَى أمرُه صعبٌ جدّاً! كما قالَ عليهِ الصَّلاة والسَّلام في الخوارِج «تتجَارَى بِهِم الأَهوَاءُ كَمَا يَتجَارَى الكَلَبُ بِصَاحِبِهِ»(2)؛ لأنَّه في صراعٍ دائِم ومقاومةٍ مستمرَّة معَ عدوٍّ بداخلِه، وهذا من أعظَم أنواعِ الجهادِ.

فإذَا تمكَّن العبد من مخالفَة هوَاه، بحيثُ يقدِّم مرضاةَ ربِّه تعَالى علَى ما تحبُّه نفسهُ وتهوَاه؛ فإنَّ ذلِك أعظمُ فوزٍ وانتصارٍ يحقِّقه ضدَّ هذا العدوِّ الخطير، وهذَا إن دلَّ على شيءٍ فإنَّما يدلُّ علَى معرفتِه التَّامَّة بالله تعَالى وبأسمائِه وصفاتِه واستحضارِه لمراقبةِ ربِّه جلَّ وعلا على الدَّوام، كما جاءَ ذلك في حديثِ جبرِيل عليه السلام لمَّا سأَل النبيَّ ﷺ عن الإحسَان؛ فقال ﷺ: «أن تعبُدَ الله كأنَّك تَراهُ فإنَّ لم تكُن تَراهُ فإنَّهُ يَرَاكَ»(3).

---

(1) أخرجه ابن ماجه (1/ 5رقم 8) وابن حبّان في"صحيحه" (326)، وحسّنه الألباني في "سلسلة الأحاديث الصحيحة "رقم (2442).

(2) أخرجه أحمد (16329) وأبو داود (3981) وغيرهما وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (51).

(3) أخرجه البخاري (50) ومسلم (9).

ولمّا كانَ الهوَى أصلُ كلِّ شرٍّ وفسادٍ نهى عنهُ المولى عزَّ وجلَّ، وحذَّرَ منهُ ومن مجاراتِهِ وطاعةِ من اتَّبعه. قالَ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:28]، وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص:26]، وقال أيضا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام:150]، وقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:49] ، وقال تعالى مخاطباً نبيَّه ﷺ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة:145] ، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون:71] ، وقال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية:18]،والآيات بمثل هذا كثيرة في كتاب الله .

قال ابن القيِّم –رحمه الله– : "...فإنَّ اتِّباعَ الهوى يطمِسُ نورَ العقلِ، ويُعمي بصيرَةَ القلبِ، ويصدُّ عن اتِّباعِ الحقِّ، ويُضِلُّ عن الطَّريقِ المستقيمِ، فلا تحصُل العِبرَة معهُ ألبَتَّةَ!، والعبدُ إذا اتَّبعَ هواه فسَدَ رأيُه ونظرُه، فأرتهُ نفسهُ الحسَن في صورَة القبِيحِ، والقَبيحَ في صورَة الحسنِ، فَالتبَس عليهِ الحقُّ بالباطلِ، فأنَّى لهُ الانتِفاع بالتَّذكُّرِ والتَّفكُّرِ أَو بِالعظَة ؟!"[1].

والنَّاظر في حالِ بعض الدُّعاة اليومَ، ممَّن يدَّعُون الانتسابَ إلى العِلم!؛ يجدُهم يَرغبُون في تحقيقِ أمرَين اثنين:

أولهما : الفوزُ بالجنَّة، وهُو مطلبُ كلِّ واحدٍ منَّا .

والثاني: التَّمتُّع بجمِيعِ الشَّهواتِ.

والنَّاس جميعًا مشترِكون في هذينِ الأمرَين، وإنَّما خصَّصت ذِكر الدُّعاة دونَ عامَّة النَّاس باعتبارِ أنَّهم همُ الموجِّهون للأُمَّة، والنَّاس تَبعٌ لهم في ذلك.

ويأبى المولى تبارك وتعَالى أن يجتَمعَ هذانِ الأمرَان، لأنَّ السَّائرَ إلى الله تعالى لابُدَّ أن يعلَم عِلمَ يَقينٍ أنَّهُ يسِيرُ في طريقِ المكرُوهات، وأنَّ سبيلَ الجنَّة محفُوف بالمكَارِه – أي كلّ ما تكرَههُ النَّفس– وذلِك مصداقًا لقولِ رسُول الله ﷺ: « حُفَّت الجنَّةُ بِالمكَارِهِ، وَحُفّت النَّار بِالشَهوَاتِ» [2]، فمن أرادَ الجنَّة فعلَيه أن يُوطِّنَ نفسَه على تحمّل المكرُوهاتِ، والرِّضا بالمقدُور؛ وإن كَرهتهُ نفسُه .

(1) مدارج السالكين (1/ 449) .

(2) أخرجه مسلم (4/ 2174) وأحمد (3/ 254) الترمذي (4/ 693) وغيرهم .

يقُول ابن القيِّم -عليه رحمة الله-:"فأمَّا مخالفَة الهوَى فلَم يجعل الله للجنَّة طريقًا غيرَ مخالفَتهِ، ولم يجعَل للنَّارِ طريقًا غيرَ متابعتِه، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:37-41] "[1].

ويبيِّن المولى عزَّ وجلَّ هذهِ الحقيقةَ بقولِه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:214] ، ففِي الآيةِ تنبيهٌ إلى أنَّ الابتِلاءَ طريقُ الأوَّلينَ من قَبلِنا، وأنَّه شرطٌ لدُخولِ جنَّة الرُضوان، فكلُّ من أرادَ الوُصولَ إلى الجنَّة فما علَيه إلا أن يتَّبعَ الخُطى والآثار، ويسلُك سبيلَ هؤلاءِ الصَّالحين الذِّين سارُوا ووَصلُوا، ولن يَكونَ ذلكَ إلا بمخَالفَةِ الهوَى، والتغلُّب على النَّفسِ، وإيثار ماعند الله على مَا تحبُّه النَّفس؛ لأنَّها تأمُر بالسُّوءِ، كمَا قال ربُّنا تعالى :﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:53] ، وفي مُقابلِ ذلك تقديمُ ما يحبُّهُ الله ويرضَاه وكلّ مَا أوجبَه هذا الدِّين، حتّى لا يجدَ الشَّيطانُ عليهِ مدخلاً، لأنَّه يدخلُ علَى العبدِ من بابِ الهوَى .

قال ابن قيِّم الجوزيَّة – رحمه الله-:"...والشَّيطان يَطِيفُ بالعبدِ من أينَ يدخُل عليه،فلا يجدُ عليهِ مدخلاً ولا إليهِ طريقًا إلا من هوَاه، فلذلكَ كانَ الذِّي يخالِفُ

(1) روضة المحبِّين (401).

هوَاه يَفرُقُ الشَّيطانُ من ظِلِّه، وإنَّمَا تُطاقُ مُخالَفةُ الهوى بالرَّغبةِ في الله وثوابِه، والخَشيةِ من حجابِه وعذابِه، وَوجدِ حَلاوة الشِّفاء في مُخالَفةِ الهوَى،فإنَّ متابعتَهُ الدَّاء الأكبَر ومُخالفته الشِّفاء الأعظَم "[1].

فالحاصِل أنَّ كلَّ من كانَ هوَاه تبعاً لِمَا جاءَ بِهِ الدِّين فإنَّك تجدُه يحتكمُ إلى شرعِ ربِّ العالمين في كُلِّ جُزئيةٍ من جزئيَات الحيَاة؛ وحينَئذٍ تحصُل له الحيَاة الطيِّبةُ التي وعدَ بها المولى عزَّ وجلَّ كلَّ من آمنَ وعمِلَ صالحًا، فكانَ عملُه حسنًا وصالحًا لأنَّه وافقَ أوامرَ الشَّرعِ، واجتَنبَ نَواهِيه وخَالفَ هواهُ ولم يتَّبعهُ، وجعلَ الشَّرعَ إمامًا لهُ وهادِياً، لأنَّ رغبتَه انصرَفت إلى الله عزَّ وجلَّ وإرادَةِ ما عندَهُ من نَّعيمٍ ورِضوَان.

يقُول ابن القيِّم:"...وأمَّا الرغبَة في الله وإرَادَة وجهِهِ والشَّوقِ إلى لقائِهِ فهيَ رأسُ مالِ العبدِ، وملاكُ أمرِه وقِوامُ حياتِه الطَيِّبة، وأصلُ سعادتِهِ وفلاحِهِ ونعيمِهِ وقرَّة عينِهِ، ولذلِك خُلقَ وبهِ أُمرَ، وبذلكَ أُرسلِت الرُّسلُ وأُنزلِت الكُتبُ، ولا صَلاحَ للقلبِ ولا نَعيمَ إلا بأن تكُون رغبتُه إلى الله عزَّ وجلَّ وحده، فيكُونَ هو وحدَه مَرغُوبهُ ومَطلُوبهُ ومُرادَهُ"[2].

ومَن وصلَ إلى تحقيقِ مُرادِ ربِّه منهُ، وتقدِيم ما يحبُّه مولاهُ على ما تحبُّه نفسهُ وتهواه، وفَّقَه الله لأَن يزدَاد إيماناً بِهِ ورغبةً فيما عنده، ورِضاً بما قدَّرهُ عليه واختارَه

(1) روضة المحبين (401).

(2) روضة المحبين (405).

له، ويقيناً بأنَّ الخيرَ ثمّةَ، فتستوي عندئذٍ أحوالُه كلُّها، ويعيشُ مرتاحًا وساكنًا وراضيًا عن ربِّه أتمَّ الرِّضا، كما قالَ رسول الله ﷺ: « عَجَبًا لأَمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خيرٌ وَلَيسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلا لِلمُؤمِن! إن أَصَابَتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خيرًا لَهُ وَإن أَصَابَتهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خيرًا لَهُ » [1]، فتعجَّب رسُول الله ﷺ لأمرِ المؤمنِ كيفَ استَوت عندَه حالُ السَّراءِ والضَّراءِ؛ وإنَّما كانَ ذلكَ لقوةِ إيمانِه ومعرفتِهِ بربِّهِ، وثقَتهِ في عدلِه وحكمتهِ، وأنَّه لا يختَارُ لهُ إلا ما يُصلِحُهُ، فلا يُفكِّرُ في لحظَةٍ من اللَّحظاتِ أن يقتَرحَ علَى ربِّهِ برأيِهِ أو يُقدِّم هَواهُ ومُرادَه علَى مُرادِ ربِّهِ، فلَم يجِد الهوَى في قلبِه محلاً ولا إليهِ مَدخلاً؛ لأنَّ معرفتَه بربِّهِ ورِضاهُ عنهُ طمَسَت معَالِمِ الهوَى من هذَا المحلّ الطَّيِّب .

قال ابن القيِّم-رحمه الله- :"**السّابع والعشرون**:أنَّ الرِّضا يخرجُ الهوَى من القَلب، فالرَّاضِي هوَاه تبعٌ لمُرادِ ربِّه منه - أعنِي المرادَ الذِّي يحبُّه ربُّه و يرضاهُ- ، فلا يجتمِع الرِّضا واتِّباعُ الهوَى في القلبِ أبدًا، وإن كَان معهُ شعبةٌ من هذَا فللغَالبِ عليهِ منهَما "[2].

إذَن: هذه هيَ الأعدَاء الثَّلاثةُ التيِّ تقفُ في وجهِ العبدِ المسلِم حتى لا يحصَل لهُ الانتفَاع بآياتِ الله تعالى التي تُنجِيه في الآخرَة، فإذا انساق معها كان بمعزلٍ عن دِينهِ فيحصَل لهُ الموتُ يومًا بعدَ يومٍ، فهيَ موانعُ تحُول دونَ التَّمكُّن من

(1) أخرجه مسلم (2995).
(2) مدارج السالكين (2/ 210).

العيشِ بهذَا الدِّين الذِّي بهِ حياتُنا وسعَادتُنا، وأمّا إذَا عاش بهذا الدّين واعتصم بالله ربّ العالمين، فإنّ الله يحُول بينَه وبينَ هذه الأعداء، وينصُره عليهِم، كمَا قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج:78]، " فكمَال النُّصرَة علَى العدوّ بحسبِ كمَال الاعتصامِ بالله" [1].

وإذَا نظرنَا إلى حالِنا اليوم وجدنَا أنَّ هذهِ الصَّوارِف قَد تمكَّنت من القلُوب واستحوَذت عليها، كمَا قال ابن القيِّم -رحمه الله-:"وهذِهِ حالُ أكثرِ النُّفوسِ معَ هذا العدوِّ، ولهذَا تراهُم يُسخِطُون ربَّهُم برِضَا أنفسِهم، بل بِرضَا مخلُوقٍ مثلِهم لا يملِك لهُم ضرًّا ولا نفعًا، ويُضيعّون كسبَ الدِّينِ بكسبِ الأَموالِ، ويُهلِكُون أنفسَهم بمَا لا يبقَى لهُم، ويحرِصُون علَى الدُّنيا وقَد أدبرَت عنهُم، ويزهَدُون في الآخرَة وقَد هجَمت علَيهم ويخَالفُون ربهَّم باتِّبَاعِ أهوَائهم، ويتّكلُون علَى الحيَاة ولا يذكرُون الموتَ، ويَذكرُون شهَواتهم وحُظُوظهم، وينسَون ما عَهد الله إليهم، ويهتَمُّون بما ضَمنهُ الله لهم، ولا يهتَمُّون بمَا أمَرهُم بهِ، ويفرَحُون بالدُّنيَا ويحزَنُون على فوَات حظِّهم منهَا، ولا يحزَنُون علَى فوَات الجنَّة ومَا فيهَا، ولا يفرَحُون بالإيمانِ فرَحهم بالدِّرهمِ والدِّينار، ويُفسِدُون حقَّهم ببَاطِلِهم، وهُداهُم بضَلالهِم، ومعرُوفهُم بمُنكرِهم، ويُلبسُون إيمانهَم بِظنُونهِم، ويخلِطُون حلالهَم بحرَامِهم، ويترَدَّدون في حِيرةِ آرائِهم وأفكَارِهم، ويترُكُون هُدَى الله الذِّي أهدَاه إليهِم" [2].

---

(1) مدارج السالكين (1/ 180).

(2) الفوائد (194).

خامساً: الدين عصمة للمسلم من الوقوع في الذنوب والمعاصي

إنَّ الحياة الإيمانيَّة مبدؤُها منَ القلبِ الذِّي هُو أَساسُ صَلاحِ العبدِ واستقامتِه، يقول الرسول ﷺ: «أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ القَلب »[1]، فإذا فقَد القلبُ حياتَه ونورَه مات وصارَ عُرضةً لجميعِ الفِتن: فِتنِ الشُّبهاتِ؛ وقد مرَّ ذكرُها سابقًا، وفِتنِ الشَّهوات؛ وهِيَ التيِّ تُوقعُ العبدَ في مَعصيَة الله والخرُوجِ عن طاعته بسبب بُعده عن دينه وعدَم العمل بأحكامه والاستجابَة لأوامرِه والانتهاء عن نواهِيه؛ لأنّ في تمسّكه بدينِه العصمة من كل فساد كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:124] ، والمعيشة الضنكَة هي عكس الحياة الطيِّبة التي تحصلُ لصاحبِ الإيمان والعمل الصالح.

إعلَم -أخي المسلم- أنَّ من أعرَض عن هذا الدِّين فإنَّه لن يذُوق طعمَ السَّعادة في حياتِه، ويكُون عُرضة للوقُوع في الذُّنوب التي يجني أشواكَها في الدُّنيا بأن يكون في ضنكٍ من العيش وضيق النَّفس، والقلَق والحِيرة وعدَم الرَّاحة والاطمئنَان، ثمَّ إنَّ هذه الذُّنوب تبقى معَه بعد موته لتكُون وبالاً عليه في قبرِه، وترافقَه بعد ذلكِ إلى اليوم الآخر كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ

(1) سبق تخريجه ص (75).

نُسَىٰ ﴿١٢٦﴾ [طه:126]، أي: أنّه لم يعش بالدِّين في حياتِه ولم يطبّق أحكامَه، بل نسيَهُ وتركَه وراءَه ظهريًا، فكانت نتيجتَه أن صارَ أعمَى بعدمَا كان بصيرًا، وتحوَّل من النورِ إلى الظَّلام يخبطِ فيه خبطَ عشوَاء، فأصابتهُ ظُلمة في قلبه وظُلمة في قبرِه ثمّ ظُلمة في الآخرة. وكلّما تمادَى العبد في الذُّنوب والمعاصِي ازدادَ قلبُه ظلمةً وسوادًا حتى يصِل إلى الهلاك والردَى -عياذا بالله تعالى-.

وقد أشَار النّبيُّ ﷺ إلى خطرِ الذُّنوب على القلَوب فقال: «تُعرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلبٍ أُشرِبهَا نُكِتَ فِيهِ نُكتَةٌ سَودَاءُ، وَأَيُّ قَلبٍ أَنكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكتَةٌ بَيضَاءُ، حَتَى تَصِيرَ عَلَى قَلبَينِ، عَلَى أَبيَضَ مِثلِ الصَّفَا فَلا تَضُرّه فِتنَةٌ مَادَامَت السَمَوَاتُ والأَرض، وَالآخَرُ أَسوَدُ مُربَّادًا كَالكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعرِفُ مَعرُوفًا وَلا يُنكِرُ مُنكَرًا إلا مَا أُشرِبَ مِن هَوَاهُ»(1). فآخرُ ما يصلِ إليه القلبُ هو أن يصيرَ كالكوزِ مجخّيا -أي:كالكأس المقلوب الذي لا يمسك شيئا- لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكرا، لأنَّه على هيئةٍ لا تسمح له بقبُول شيءٍ بالكلّيَة.

وروى الإمامُ الترمذي في سننِه عن أَبِى هريرة رضي الله عنه عن رَسول الله ﷺ قال: «إِنَّ العبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَت فِي قَلبِهِ نُكْتَةٌ سَودَاءُ فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاستَغفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلبُهُ، وإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعلُوَ قَلبَهُ؛ وَهُوَ الرَّانُ الذِّي ذَكَرَالله : ﴿كَلَّا بَلْ

(1) أخرجه مسلم (144) وغيره.

رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ [المطفِّفين:14] »[1] فحدثَ لهم موتٌ كلّيٌّ، بدأ من القلبِ حتَّى سرَى وتمكَّن من الجسمِ كلِّه .

قال ابن القيِّم – رحمه الله-: "فممّا ينبغي أن يُعلَم أنَّ الذُّنوب والمعاصِي تضرُّ، ولاشك أن ضررَها في القلُوب كضررِ السُّمومِ في الأبدانِ على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شرور وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!"[2].

والمقصُود أنَّ كلّ من ابتعدَ عن العيشِ بالدِّين فإنَّه يُسلب الحصانَة والحمايَة، ولو كان من أعلَم النَّاس بالحلالِ والحرام، ففِي الحديثِ الصَّحيح أنَّه : « يُجَاءُ بالرَّجُلِ يَومَ القِيَامَة فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتندَلِقَ أَقتَابُهُ في النَّارِ فَيَدُورُ كَما يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجتَمِعَ أَهلُ النَّارِ عَلَيهِ فَيَقُولُونَ: أَي فُلانًا مَا شَأنُكَ؟! أَلَيسَ كُنتَ تَأمُرُنَا بِالمَعرُوفِ وَتَنهَانَا عَنِ المُنكَر؟! قَـالَ: كُنتُ آمُرُكُم بِالمَعرُوفِ وَلا آتِيهِ وَأَنهَاكُم عَنِ المُنكَرِ وَآتِيهِ!»[3]، فلم ينفعهُ ذلك العِلم لأنَّه لم يعمَل به، فما على العبد إلا أن يعودَ إلى ربِّه ويسارِع في إصلاح قلبِه وعلاجِه ومداواتِه بالتوبة والاستغفَار حتى يُصقَل ويُشفَى ويَنقشَع ظلامُه الذي أُصيبَ بهِ بسببِ الذُّنوب والمعاصِي والبُعد عن الدِّين، فإنَّه بمجرَّد عودته إلى الله بالاعتراف بالذَّنب واللجُوء إليه بالاستغفارِ والإنابَة وطلبِ المغفرَة والعفوِ منه، فإنَّ الله يقابلُه بالصفحِ والتَّجاوز، وسيجِد ربّاً

(1) أخرجه أحمد (7939) والترمذي (3334) وغيرهما،وحسّنه الشيخ الألباني في"صحيح الجامع"(2550)،"صحيح الترغيب والترهيب"(1620).

(2) الداء والدواء (26).

(3) البخاري (3094) و مسلم (2989) .

رحيمًا غفورًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء:110] ، وعن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ عَبدًا أَصابَ ذَنبًا؛ وَرُبَّما قَالَ: أَذنَبَ ذَنبًا، فَقالَ: رَبِّ أَذنَبتُ؛ وَرُبَّما قَالَ: أَصبتُ، فاغفِر لِي!، فقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ وَيأخُذُ بِهِ؟! غَفرتُ لِعَبدِي، ثمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله ثمَّ أَصَابَ ذَنبًا؛ أَو أَذنَبَ ذَنبًا، فقَالَ: رَبِّ أَذنَبتُ؛ أَو أَصبتُ، آخرَ فَاغفِرهُ!، قَالَ: أَعَلِمَ عَبدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ وَيأخُذُ بِهِ؟! غَفرتُ لِعبدِي، ثمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله، ثمَّ أَذنَبَ ذَنبًا؛ وَرُبَّما قَالَ: أَصَابَ ذَنبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَصبتُ أو قَالَ أَذنَبتُ آخرَ فَاغفِرهُ لِي!، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ وَيأخُذُ بِهِ؟! غَفرتُ لِعبدِي ثَلاثًا فَليَعمَل مَا شَاءَ !»[1].

بل إنّ الله تعالى يفرح بتوبة عبده كما قال ﷺ : «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبدِهِ المُؤمِنِ مِن رَجُلٍ فِي أَرضٍ دَوِيَّةٍ مُهلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاستَيقَظَ وقَد ذَهَبَت! فَطَلَبَهَا حَتَى أَدرَكَهُ العَطَش، ثُمَّ قَالَ: أَرجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوت، فَوَضَعَ رَأسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاستَيقَظَ وَعِندَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيهَا زَادُهُ؛ طَعَامُهُ وَشَرَابُه، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ العَبدِ المُؤمِنِ مِن هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ»[2].

(1) رواه البخاري (7068) واللفظ له، ومسلم (2758)

(2) رواه مسلم (2744).

وهذا كلُّه من رحمة الله سبحانه جلّ ثناؤه ولطفُه بنَا، إذ منَّ علينا بالتَّوبة والاستغفارِ لمّا علِم عجزنا وتقصيرنا، كي نجدِّد الصّلة بيننَا وبينه سبحانه وتعَالى، فتعود قلوبنا إلى الحياة بعدَما كانت ميِّتة، وإلى الأنسِ بالله بعدمَا أصابتها الوحشَة من جرّاء الذُّنوب والمعاصي، ونُسارع في الإقدَام على الله والعيشِ معهُ سبحانه وتعالى، فإنَّه لا حياةَ لنا بدونهِ، والله المستعان وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

۞۞۞

الأصلُ الثَّاني: العبدُ مُلكٌ لله

بعدَ فراغِنا بحمد الله من بيَان الأصلِ الأوَّل الذِّي تنبني عليهِ السَّعادة في الحياة، بقيَ في ذمّتنا أصلٌ آخر ينبغِي أن نبيّنه ونوضّحه، لأنّ به كمال السَّعادة وتمامها بإذن الله.

هذا الأصلُ هو: العبدُ ملكٌ لله، فأقولُ مستعينا بالله:

يقول الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المُلك:1]، ويقول جلّ وعلا: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة:107]، ويقول جلّ في علاه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن:1].

ويقول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:26]، ويقول الله عزّ وجلّ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة:120]، والآياتُ التي تدلُّ على مُلك الله تعالى كثيرة جدّاً.

فما من شيءٍ بين السماءِ والأرض إلا و هُو تحت تصرّفه سبحانه وتعالى لا يخرج شيءٌ عن ملكِه، وهذَا الملك ملكٌ حقيقيٌّ شاملٌ لجميع مخلوقاتِه، تامٌّ لا يعترِيه نقصٌ ولا زوَال، يلِيق بكمالِه وجلاله سبحَانه وتعالى، لذلك لمّا أرادَت النَّصارى أن تخرِج بعضَ الخلق عن ملك الله؛ وادّعت أنَّ الله هو المسيح ابن مريم، ردّ المولى عزّ وجلّ عليهم دعوَاهم الكاذِبة بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة:17] ، فحكَم عليهم بالكُفر لمِاَ قالُوه من الادّعاء والافتِراء على الله سبحانه وتعالى، لأنَّ الله مالكُ كلِّ شيء، وهوَ المتصرِّف فيه لا ينازِعهُ أحدٌ في خلقِه وملكِه مهمَا علَت منزلتُه وشرُفت مرتبته؛ ولو كانَ نبيًّا مُرسلاً أو ملكا مُقربًا، مع العِلم أنَّ عيسى عليه السلام وُلِد بغير الطَّريق المعتَاد – أي من غير زواج –: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ [مريم:20]، ومعَ ذلك لا يحقّ لأحدٍ أن ينسِب الإلهية لغير الله، فيقُول مادامَ أنَّ المسيحَ عليه السلام لم يُولد بالطَّريقة التي يُولَد بها البَشرُ فهُو ليسَ من جملة البَشرِ!، وبالتّالي يدّعي له الإلهية كمَا تزعُمه النّصارى، وهذا الأمرُ لا ينبغي أن يكُون لأنَّ المالِك الحقيقيَّ للسماوات والأرض ومَا فيهن من جمِيع المخلُوقات هو الرّب سبحانه وتعالى، فلهذا بيّن المولى تبارك وتعالى أنَّ عيسى عليه السلام لا يخرُج عن

كونه بشرا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:60] ، اختاره الله تعالى واصطفاه لرسالته: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ [المائدة:75] .

بل إنَّ المسيح عليه السلام أثبت لنفسه العبوديَّة لله تعالى فقال: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠﴾ [مريم:30]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾ [المائدة:72] ، ففي قوله: "رَبِّى وَرَبَّكُمْ " دليلٌ على أنَّ جميع الخلق خاضع لربوبيته التي تقتضِي تفرُّده تعالى بالخلق والملكِ والتدبير والرزق، "فهل يلِيق أن يكُون العبدُ المملُوك الفقير إلهًا معبوداً غنيا من كل وجه ؟! هذا من أعظم المحال ! " [1] .

وكذلِك لمّا ادَّعت اليهود والنَّصارَى القرب من الله عزّ وجلّ؛ وهم قد أرادوا بذلك أن يخرجُوا أنفسَهم عن ملكِه تعالى، كي لا يحاسِبهم على أعمالهم ولا يجازِيهم على سوءِ فِعالِهم وذلك في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:18] ، ردّ الله سبحانه وتعالى فريتهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ

(1) تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السّعدي (226).

خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة:18] ، فأبطَل الله دعوَاهم الكاذِبة ونفى القرابَة بينه وبينهم، وأخبر أنهَّم بشرٌ كغيرِهم من المخلوقين المملُوكِين المربُوبِين؛ يخضعُون للحسَاب والعتَاب، ومعرّضون للجزاء والعقَاب، وأنهّم إليه راجعُون كما قال في الآية الأخرى: ﴿ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ ﴾ [الحديد:5] ، وكذلك لمّا زعمُوا بكذبهم اختصَاصهُم بدُخولِ الجنّة في قولهم: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة:111] ، ردّ الله عليهم بقوله: ﴿ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [البقرة:111] ، ونحو ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنىَ .

هذا، ولقد تجسّدت هذه الحقيقة بجلاء لدَى الأنبيَاء عليهم السّلام في دَعوة أقوامِهم إلى عبادة الله وتوحيدِه وإفراده بالإلهيَّة؛ مع ما كانُوا يجدونه من إعراضٍ وصدودٍ وأذيَّةٍ وجحُود، كمثل ما وقَع لهود عليه السلام في حوارِه مع قومِه الدَّال على ثقتِه التَّامة بربِّه وكمالِ يقينه الجازِم بأنَّ جميعَ الخلقِ داخلٌ تحتَ ملكِ الله وتصرفِه وتدبيرِه، فهذان الأمران جعلاه يقف ذلك الموقِف العجيب.

قال تعالى إخبارا عنه : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [هود:50] ، فما زادهم دعاؤُه لهم إلى الحقّ إلا فراراً، وعلى شركهم وكفرِهم بقاءً واستمراراً، وأصرُّوا واستكبرُوا استكباراً !:

﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود:35-54]، وهذا ما دفعَ بنبيِّ الله هُود عليه السلام إلى أن يتحدَّاهم جهارًا نهارًا؛ فقال عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:54-56]

فتحدّاهم عليه السلام بأن يكيدُوا له بكلِّ ما يقدرُون عليه وبجمِيع الطُّرق والوسَائل التي تمكِّنهم منه بدون أن يمهُلوه أو يُنظِرُوه.

وهذَا الموقِف نفسُه وقفَه نبيُّ الله نوح عليه السلام مع قومِه؛ يقُول تعالى حكاية عنه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:71]، وهو حَال جملَة الأنبياء أيضًا في دعوتهِم، يقول تعالى إخبارًا عنهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:12].

ومن يتتبّع سيَرَ العُلماء الربَّانيين الصَّالحِين يجدُ أنهَّم قد اقتفوا أثرَ الأنبيَاء عليهِم السلام في تحقِيق هذا المقَام العظيم، ومن أمثلَة ذلك ما وقَع لشيخِ الإسلام ابن تيميَّة - رحمه الله - في مناظرَته للبطائحية ؛ تلكَ المنَاظرة العجِيبة التي تُنبِئ عن

تمام ثِقتِه بالله وكمال يقينِه بربِّه سبحانَه وتعالى، فها هُو يخْبِر بذَلك عن نفسِه فيقول: وقُلت لهم: يا شبهَ الرَّافضَة! يا بيتَ الكذب!، فإنَّ فيهم من الغلوّ والشِّرك والمرُوق عن الشريعَة ما شاركُوا به الرّافضة في بعض صِفاتهم، وفيهِم من الكذِب ما قد يُقاربُون به الرّافضة في ذلِك أو يساوُونهم أو يزِيدُون عليهم، فإنّهم من أكذَب الطَّوائف حتى قِيل فيهم: « لا تقُولوا أكذَب من اليهود علَى الله، ولكن قُولُوا أكذَب من الأحمديَّة على شيخهم!»، وقلتُ لهم: أنا كافِرٌ بِكم وبأحوَالِكم فكيدُوني جميعًا ثم لا تُنظِرُون! "[1].

فما هو السبب الباعث على هذه المواقف العظيمة؟! إنّه تمام التوكل على الله والثقة التامة بقدرته سبحانه وصدق الاعتماد عليه، وهذا كله إنما هو نتيجة حتمية للمعرفة بالله واليقين التام بربوبية الله لعباده .

فعبوديَّة التّوكلِ هيَ ثمرَة من ثمرَات المعرِفةِ بالله وبأفعَالهِ وأسمائِهِ وصفَاتِه، فإنَّ هذِه المعرفَة تورثُ آثارًا عظيمَة في باب العبوديَّة لا يعلَم حقيقتَها ولا يُدرِك كُنهَها إلا من ذاقَ طعمَها ووجدَ حلاوتهَا، يقُول ابن القيِّم - رحمه الله - : "والأسماءُ الحسنىَ والصِّفَات العُلَى مُقتضيَة لآثارهَا من العبوديَّة والأمر اقتضاءَها لآثارِها من الخلقِ والتَّكوين، فلِكلِّ صِفة عُبوديَّة خاصَّة هيَ من مُوجبَاتها ومُقتضيَاتها - أعني من مُوجبَات العِلم بها والتَّحقُّقِ بمعرفتها- وهذا مطّرد في

(1) مجموع الفتاوى (11/ 475).

جميعِ أنواعِ العبوديَّة التي علَى القلبِ والجوارِح، فعلم العبدِ بتفرّد الربِّ تعالى بالضرّ والنفعِ والعطاءِ والمنعِ والخلقِ والرزقِ والإحياءِ والإماتَةِ؛ يُثمرُ له عبوديَّة التَّوكلِ علَيه باطنًا ولَوازِم التَّوكلِ وثمرَاتهِ ظاهرًا "[1].

وقال- رحمه الله- أيضا:"فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟ قلت : هو حالٌ للقلب ينشأ عن معرفته بالله والإيمان بتفرُّده بالخلقِ والتَّدبير والضرِّ والنَّفع والعطَاء والمنعِ، وأنَّه ماشاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكُن وإن شاءَه النَّاس، فيُوجب لهُ هذا اعتمادًا عليهِ وتفويضًا إليهِ وطمأنينَة بهِ وثقةً بهِ ويقينًا بكفايتهِ لِمَا توكَّل عليه فيهِ، وأنَّه مليٌّ به ولا يكُون إلا بمشيئتهِ شاءَه النَّاس أم أبوهُ، فتُشبه حالته حالة الطِّفل مع أبويهِ فيمَا ينوِيه من رغبةٍ ورهبةٍ همَا مليَّان بهما، فانظر في تجرُّد قلبهِ عن الالتفَات إلى غيرِ أبويهِ وحبسِ همِّه على إنزال ما ينوِيه بهما فهذِه حال المتوكِّل، ومن كان هكذا مع الله فالله كافيهِ ولا بدّ! ، قال تعالى:﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق:3]، والحسبُ الكَافي"[2].

"فكل من كانَ بالله و صفاته أعلَم و أعرَف كان توكُّله أصحَّ و أقوَى "[3].

(1) مفتاح دار السعادة (2/ 481).
(2) مدارج السالكين (1/ 82) .
(3) مدارج السالكين (2 / 118).

فصل: دلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111]، على أن العبد ملك لله.

إنّ من تمامِ رحمة الله بعباده أن خلقَهم وأوجدَهم بعدما كانوا عدمًا، وأسبغَ عليهم نعمَه ظاهرةً وباطنةً، ومَتَّعهم بكل ما يحتاجُون إليه لإقامة شؤون دنيَاهم وأُمورِ آخرتهم، ثم زادَهم على هذه النِّعم فضلا آخرَ تكرّما منه سبحانه وتعالى، وهو عرضُه للجنَّة ثمنًا لنفوسهم وأموالهم؛ بحيث أنهّم إذا بذلُوها فيه استحقُّوا الثَّمن، وعقدَ معهم هذا العَقد مع أنَّ هذه النُّفوس والأموالِ ملكٌ له تعالى منّ بهمَا على عبادِه.

وهذه التِّجارة لا مثيلَ لها! إذ المالِك للبضَاعة التي هي النَّفس والمال يشتَريها من عبدِه وقد أعطاهَا له ابتداءً فضلا منهُ وتكرّما، ثم يُعطيه مقابِل ذلك جزاءً عظيما لا يُساويه جزاءٌ آخر؛ ألا وهُو الجنّة، إنّه جزاء عظيم ونَعيم مُقيم وسعادة إلى الأبد، لا تعبَ فيها ولا نكَد، و قد أخبر رسول الله ﷺ عنها بقوله: « قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَعددتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِين مَا لا عَينٌ رَأَت وَلا أُذُنٌ سَمِعَت وَلا خَطَرَ عَلَى قَلبِ بَشَرٍ، فَاقرَؤُوا إِن شِئتُم قَولَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:17] »[1].

(1) أخرجه البخاري (3072) ومسلم (2824).

فإن قلت: فما معنى قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111] ؟! قلت: معنى الآية أنّه لا يحقُّ للعبد أن يتصرّف في نفسِه أو مالِه إلا بإذن من الشّارع سبحانه وتعالى، لأنّه هو المالك لهما ابتداءً وانتهاءً، وقد اشتراهما منه مقابل الجزاء الأكبرِ والحظِّ الأوفر في جنّات النعيم والنعيم المُقيم.

وعليه: فلا يجُوز للعبدِ الضّعيف الفقِير أن يقول هذه نفسي وهذا مالي أفعَل فيهما ما أشَاء!، بل النّفس و المال ملكٌ للكبِير المتعَال، وما العبدُ الضّعيف الفقِير إلا مُستخلف فيهمَا مُستأمَن عليهما.

فصل: النفس ملك لله

إنّ اعتقاد العبد ملكيّة نفسِه لخالقِه ومولاه يقتضِي منه أن لا يصرِّفها إلا وِفقَ ما يحبُّه ربُّه ويرضَاه، فلا حركة لها ولا سُكون إلا من بعد إذنه تعالى، ولا يقول قولاً ولا يفعل فعلاً حتى يعلَم حكم الله فيه، وهذَا شاملٌ لأعمال القلب والجوارِح. وقد حكى الإمام الشافعي -رحمه الله- في ذلك إجماعًا عن أهل العلم؛ نقَلَه عنهُ الإمامُ القَرافي- رحمه الله- فقال:"إنّ الغزالي حكَى الإجماع في "إحياء علوم الدّين" والشّافعي في "رسالته" حكاهُ أيضا؛ في أنّ المكلّف لا يجُوز له أن يُقدم على فِعلٍ حتّى يعلَم حكمَ الله فيه، فمن باع وجبَ عليه أن يتعلَّم ما عيَّنَه الله وشرعَه في البّيع، ومن آجرَ وجب عليه أن يتعلّم ما شرعهُ الله تعالى في الإِجارة،

ومن قارَض وجب عليه أن يتعلّم حكم الله تعالى في القِراض، ومن صلّى وجب عليه أن يتعلّم حكمَ الله تعالى في تلك الصّلاة، وكذلك الطّهارة وجميع الأقوال والأعمال"(1).

فإبرام هذا العقد بين العبد وخالقه يُوجِب عليه الاستقامة على طاعته بامتثال أوامرِه واجتناب نواهِيه والقِيام على حدُوده والسَّيرِ على منهج نبيِّه عَليه الصّلاة والسّلام،كما قال ذُو الجلال والإكرام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فُصِّلَت:30] ، أي: آمَنوا بربهِّم و أقرّوا له بالوحدانية ثم استقاموا على طاعته، فكان لذلك الإقرَارِ أثرٌ عظيمٌ على الجوارِح إذ دفعَ بها إلى الانقيَاد لأمر الله الكوني والشرعيِّ.

ومتى استقرّت هذه الحقيقَة في نفس المؤمنِ كان حقيقًا بوصفِ العبودية جديراً به، ومن كان هذَا حاله فإنَّه يعيشُ مطمئنّ النفس مرتاحَ البَال راضياً عن الله في كلِّ ما يجُرِيه عليه من أحكامٍ وأحوَال .

ولقد تجلّى هذا المعنى بوضُوح في قصَّة الصحابيَّة الجليلَة أم سُليم - رضي الله عنها- فيما رواه مُسلم عن أنس ﷺ قال:« مَاتَ ابنٌ لأَبي طَلحَة مِن أُمِّ سُلَيمٍ فَقَالَت لأَهلِهَا: لا تحُدِّثُوا أَبا طَلحَةَ بِابنِهِ حتَّى أَكُونَ أَنا أُحَدِّثَهُ، قَالَ : فَجاءَ فَقرَّبَت

(1) الفروق للقرافي (2/ 148-149).

إِليهِ عشاءً؛ فَأَكَل وَشرِبَ، قَالَ: ثمَّ تَصنَّعَت لَهُ أَحسَنَ مَا كَانت تَصنعُ قبلَ ذَلِك فَوقَعَ بِهَا، فلَمَّا رأَت أَنَّهُ قد شَبعَ وَأَصابَ مِنهَا، قَالَت: يَا أَبَا طَلحَةَ! أَرَأَيت لَو أَنَّ قوماً أَعارُوا عَارِيَتَهُم أَهلَ بَيتٍ فَطَلَبُوا عارِيتَهم؛ أَلَهم أَن يمنَعُوهُم؟ قَالَ: لا!، قَالَت: فَاحتَسِب ابنَكَ!. قَالَ: فَغَضِبَ وَقَالَ: تَركتِنِي حَتىَّ تَلَطَّخْتُ؛ ثمَّ أَخبرتِنِي بِابنِي، فَانطَلَقَ حَتَّى أَتَى رَسُول الله ﷺ فَأَخبَرَهُ بِمَا كَانَ فَقَال رَسُولُ الله ﷺ: بَارَكَ الله لَكُمَا في غَابِرِ لَيلَتِكُمَا: قَالَ: فَحَمَلَت! قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ في سَفَرٍ وَهِيَ مَعَهُ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَتَى المَدِينَةَ مِن سَفَرٍ لا يَطرُقُهَا طُرُوقًا، فَدَنَوا مِن المَدِينَة فَضَرَبَهَا المَخَاضُ فَاحتَبَسَ عَلَيهَا أَبُو طَلحَةَ وَانطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ ، قَالَ: يَقُولُ أَبُو طَلحَة: إِنَّكَ لَتعلَمُ يَا رَبُّ إِنَّهُ لَيُعجِبُنِي أَن أَخرُجَ مَعَ رَسُولِكَ إِذَا خَرَجَ وَأَدخُلَ مَعَهُ إِذَا دَخَل وَقَد احتَبَستُ بِمَا تَرَى. قَالَ: تَقُولُ أُمُّ سُلَيم: يَا أَبَا طَلحَةَ! مَا أَجِدُ الذِّي كُنتُ أَجِدُ، انطَلِق، فَانطَلَقَا، قَالَ: وَضَرَبهَا المَخَاضُ حِينَ قَدِمَا فَوَلَدَت غُلامًا، فَقَالَت أُمِّي: يَا أَنَس لا يُرضِعُهُ أَحد حَتَّى تَغدُو بِهِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَلَمَّا أَصبَحَ احتَمَلتُهُ فَانطَلَقتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: فَصَادَفتُهُ وَمَعَهُ مِيسِم فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: لَعلَّ أُمَّ سُلَيم وَلَدت؟قُلتُ: نَعم!، فَوَضَعَ المِيسَمَ، قَالَ: وَجِئتُ بِهِ فَوَضَعتُهُ في حِجرِهِ وَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ بِعَجوَةٍ مِن عَجوَةِ المَدِينَة فَلاكَهَا في فِيهِ حَتَّى ذَابَت ثمَّ قَذَفَهَا في فِيِّ الصَّبِيِّ فَجَعَلَ الصَّبِيُّ يَتَلَمَّظُها!، قَالَ: فَمَسَحَ وَجهَهُ وَسَمَّاهُ عَبد الله[1]،

(1) أخرجه البخاري (1239) و مسلم (2144) واللفظ له.

وفي رواية للبخاري قال ابن عيينة : « فَقَالَ رَجُلٌ مِن الأَنصَارِ فَرَأَيتُ تِسعَةَ أَولادٍ كُلُّهُم قَد قَرَؤُوا القُرآنَ»[1] يعني: من أولاد عبد الله المولود.

فهذا الموقف من أمِّ سُليم – رضي الله عنها- يدلُّ على يقينها التَّام بأنَّ النفس ملك لله تعالى، أعارها الله لعباده فمتى أَراد صاحب العارية استرجاع عاريتِه سَهُل الأمر وهانَ الخطبُ على العبد. وهذا ما حصلَ معها حين فقدَت قرَّة عينِها وفَلَذة كبدِها، ومع ذلك قابلَت هذه المصيبَة بالصَّبر الجمِيل والرِّضا التام، و قالت تلك المقُولة العظيمة : « أَرَأَيتَ لَو أَنَّ قوماً أَعَارُوا عَارِيَتَهُم أَهلَ بَيتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُم؛ أَلَهَم أَن يمَنعُوهُم؟». فَرَضِيَ الله عنهَا من امرأة فقِيهة في أسرار الشرع عالمة بحقائق الأمور!.

فصل : المال ملك لله

اعلم – عبدَ الله – أنَّ هذا المال الذي أعطاكَه الله عزّ وجلّ ليس ملكاً لك على الحقيقَة، و إنّما هو عاريةٌ عندكَ لا يحقُّ لك التصرّف فيه إلا بإذن من صاحبه الحقيقي؛ وهو الله تبارك وتعالى، فلا تُنفقه إلا فيما يُرضِيه ولا تستَعملهُ إلا فيما يُعين على طاعَته، ولِذلِك قالَ الصحابيُّ الجلِيل عبد الله بن مسعُود ﷺ : " كُلُّ أَحدٍ في هَذِه الدُنيَا ضَيفٌ وَمَالُهُ عَارِيَةٌ فَالضَيفُ مُرتَحِلٌ وَالعَارِيَةُ مُؤَدَّاةٌ "[2].

(1) صحيح البخاري (1239).

(2) ذكره ابن القيّم في كتابه عدة الصابرين (203) .

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد:7] ، في هذه الآية " دليلٌ على أنَّ أصلَ الملك لله سبحانَه، وأنَّ العبدَ ليسَ له فيه إلا التصرُّف الذِّي يُرضي الله فيُثيبُه على ذلك بالجنَّة، فمن أنفقَ منها في حقوقِ الله وهانَ عليه الإنفَاق منها كما يهُون على الرَّجل النَّفقة من مَال غيرِه إذا أذِن له فيهِ؛ كان له الثَّواب الجزِيل والأجرُ العظيم،وقال الحسن:(مُستَخلَفِينَ فيه بِورَاثتكم إياه عمن كان قبلكم)؛ وهذَا يدلُّ علَى أنها ليسَت بأموالِكم في الحقيقَة وما أنتم فيهَا إلا بمنزلة النُّواب والوُكلاء، فاغتنموا الفرصَة فيها بإقامة الحقِّ قبل أن تُزال عنكُم إلى من بعدَكم"[1].

إذا تقررَ هذا المعنى في نفسِ العبدِ ورسخَ في قلبِه وظهَر أثرُه على جوارحِه، فإنَّه سينَال ما وعدَه ربّه به، وهو الفوزُ بالجنّة: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة:111] ، وثمّة تحصُل له السّعادة الأبديَّة، والحياة الطّيّبة السّرمديَّة، ويجدُ هنالك كلَّ ما كان يسعَى إلى تحصيلِه في الدّنيا من مسكنٍ كبيرٍ ومالٍ وفيرٍ ومركب مريحٍ وامرأَة صالِحَة، فإنّ هذه الأمُور هي مَطالب النّاس جميعًا، خاصّة في هذه الأزمنة المتأخّرة التي صار فيها اكتسابُ ما ذكرناه يُعتبرُ ضمانًا للمستقبل- كما يقُولون -، فضَمِن الله تعالى مُستقبَل من باعَ نفسَه ومالَه له سبحانه بأن بشَّره

(1) تفسير القرطبي (17/ 238) .

بالجنّة، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:111].

ويؤكّد المولى تبارك وتعالى على هذه التّجارة الرّابحة ويحضّ عليها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف:12] ، ففي هذه الآية يُنادي الله سبحانه وتعالى عبادَه ليدلَّهم على تجارةٍ رابحة تُنجِيهم من عذاب الله الأليم، وهذه من نِعم الله تعالى على عبادِه، فإنَّ نداءَات الرّحمن لعبادِه تكُون إمّا لجلبِ خيرٍ لهم أو دفعِ شرٍّ عنهم، كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ لّما جاءه رجُل فقال له: اعهد إليّ فقال: " إذا سمعت الله يقول: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟" فأَرعِها سمعَك فإنّه خيرٌ يُأمَر به أو شرٌّ يُنهَى عنه"[1]. فما هي هذه التّجارة الرّابحة؟ بيّنها ربّنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف:11]، فمن استجابَ لنداء الله تعالى وقامَ بحقِّ هذه التّجارة عاشَ حياة طيّبة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:97].

---

(1) رواه ابن المبارك في " الزهد " (ص 13 رقم: 36) وأحمد في "الزهد" (ص 158) وابن أبي حاتم في " تفسيره "(1 / 317) وأبو نعيم في "الحلية " (1/ 130).

إنّ أعظم شيءٍ يسعَى العبد لاكتسَابه في هذه الدُّنيا هو الإيمان؛ ولذَلك بدأ به الربّ تعالى في قوله في الآية السّابقة﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ذلك لأنّ الإيمان هو القلب النّابض للحيَاة وركيزتها، والأسَاس الذي تبنى علَيه أعمَال العبد وقاعدتها، فمتى كان القلبُ عامراً بالإيمان بالله ومعرفته بأفعالِه وأسمائِه وصفاتِه أثمرَ له الأعمال الصّالحة، وكلّما قَوِيَ إيمان العبد بالله سهَّل عليه القيَام بمقتضَى العقدِ الذِّي عقدَه بينَه وبين ربّه، فيصبُح منقادًا لكلّ ما يتضمّنه هذا العقد من أوامر ونواهي بدون حرج ولا معارضة، بل يتحمّل في سبيل ذلك جميع المشاقّ كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:46].

إنَّ النّفوس تجدُ مشقَّة أَوّل الأمر في امتثَال أوامر الشّرع واجتناب نواهيه، وسبب ذلك هو ضعف الإيمان ونقصُ المعرفة بالله تعالى، فعلاج النّفوس ومداواتهُا يَكون بإِيمانهَا بربِّها ومعرفتها لبارِيها، لأنّ تحقيق هذا الأمر يُهوِّن عليهَا المشاقّ، ويُعطِيها القدرَة على تحمّل الصِّعاب في سبيل العزيز الوهّاب، كما في قصّة أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنهما- قالت: «قَدِمَت عَليَّ أُمِّي وَهِيَ مُشرِكَةٌ في عَهدِ رَسُولِ الله ﷺ فَاستَفتَيتُ رَسُولَ الله ﷺ؛ قُلتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمت وَهِي رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي؟! قَالَ: نَعم صِلِي أُمَّكِ »[1].

(1) البخاري (2477) ومسلم (1003).

من أجلِ هذا بدأ به -أي: الإيمان- سبحانه وتعالى ومهّد به لقبول ما سيذكُر بعده فقال: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾

ذلكَ لأنَّ الجهاد مكرُوه إلى النّفوس غير محبُوب إليها، كما بيّن ذلِك في الآية الأخرى وهي قولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:216]، فأخبرَ المولى تبارك وتعالى بكراهيَّة القتال للنّفوس ولم ينفِ القدرَة عليه؛ لأنّ الأحكَام الشرعية منُوطة بالقدرة والاستطاعة، فلا تكليف إلاّ بمقدور كما هو معلوم ومشهور، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة:286].

وممّا ينبغي التنبيه عليه أنّ كراهيَّة النَّفس لهذا الأمر راجعٌ إلى جهلها بعواقِب الأمور، وإلاّ فإنّ من وراء امتثالها الخيرَ الكثير، كما قال جلّ شأنه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة:216]، وقال أيضا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾ [الصف:11].

قال ابن القيّم عند شرحِه لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا﴾ الآية :

" في هذه الآية عدّة حِكَم وأسرار ومصالح للعبدِ، فإنّ العبد إذا علِم أنّ المكرُوه قد يأتي بالمحبُوب والمحبوب قد يأتي بالمكروه لم يأمن أن توافِيه المضرّة من جانب المسرّة، ولم ييأس أن تأتيه المسرّة من جانب المضرّة لعدم علمِه بالعواقب، فإنّ الله يعلَم منها مالا يعلَمهُ العبد، وأوجب له ذلِك أمورًا منها: أنّه لا أنفعَ له من

امتثال الأمر وإن شقّ عليه في الابتداء؛ لأنّ عواقبه كلّها خيرات ومسرّات ولذّات وأفراح وإن كرِهته نفسُه فهو خيرٌ لها وأنفع، وكذلك لاشيء أضرّ عليه من ارتكاب النّهي وإن هَويتهُ نفسه ومالَت إليه، وإنّ عواقبه كلّها آلام وأحزان وشرور ومصائب، وخاصَّةُ العقل تحمُّل الألم اليَسِير لما يعقُبه من اللذّة العظِيمة والخير الكثير، واجتنَاب اللّذّة اليسِيرة لما يعقُبه من الألم العظِيم والشّرّ الطّويل، فنَظرُ الجاهل لا يُجاوِز المبادئ إلى غايَاتها والعَاقِل الكيّس دائمًا ينظر إلى الغايَات من وراء سُتور مبادِئها؛ فيرَى ما وراء تلك السّتُور من الغايَات المحمودة والمذمومة"[1].

إذا عَقِلت - يا عبد الله - هذه المفاهِيم الصّحيحة، وتبيّنَت لك هذه الحقَائقُ الصّريحة؛ فإنّك ستَعيشُ تحت رايَة العبوديَّة حقّا وصدقاً، ومتى تذلّلت لله بالعبودية والتّألّه نِلتَ رِفعةً عند الله مابعدها رفعة!.

ومن عجِيب حالنا اليوم أنّنا نبحَث عن لقاء الأكابر من أصحَاب الرّياسات والأموال، من أجل قضاء بعضِ حوائجِنا ومصالحنَا، ونبذُل في مقابل ذلك كلّ عزيز وغَال، وقد نحصُل على مطلُوبنا وقد لا نحصل عليه!، في حين ننسَى الكبِير المتعَال، الغنيّ الحمِيد ذا الطّولِ والإنعَام، الذي لَهُ خزَائن السموَات والأرض، التيّ لا تنفَد بكثرةِ المنّ والإكرَام، والذي كُلّمَا توجَّه إليه العبد وجدَه فاتحا بابَه،

---

(1) الفوائد (126-127).

سامعًا دعاءَه، يكفِيه في ذلك أن يتوضّأ كما أمره الله، ثمّ يصلّي ركعتين يُكثِر فيهما من الدّعاء والتضرّع والابتهال لله سبحانه وتعالى، لأنَّ العبد أقرب مايكون من ربّه وهو ساجد، فإنّه سيجِد ربّاً رحيمًا حكيمًا عليمًا قديرًا، لا يَردُّ طلب عبده ودعاءه، ولا تُثقِلهُ حاجاته ومسألته، وهذا كلّه بدونِ مقابل منّا!.

فيا لهُ من كنزٍ عظيم !، وإنّه ليَسِير على من يسّره الله عليه، لكن للأسَف الشّديد ما عرفنا هذه الحقائق الإيمانيَّة حقّ المعرفة،وأمّا الذي عرفهَا على وجهها،كان إذا حزَبه أمر فزِع إلى الصّلاة؛ لأنّه علِم حقيقةَ نفسه الضّعيفة، وأنّها لا حول لها ولا قوّة، وأنّ الذي بيدِه الأمر كلّه هو القادِر العالم بأحوَال العباد، وهو الله سبحانه وتعالى، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: « كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمرٌ صَلَّى » (1) ، ولذلك أرشدنا المولى عزّ وجلّ إلى دعائه فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر:60] ، وحثّنا عليه النبيّ ﷺ بقوله: «... وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجتَهِدُوا في الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَن يُستَجَابَ لَكُم » (2).

أخي عبد الله : إذا فهمت هذا الأصل فهما جيّدا فإنّك ستعيش عبدًا لله تعالى في جميع أحوالِك سواء في حالِ الغنى والفَقر، أو في حال الشّدّة والرّخاء أو في

---

(1) رواه أحمد في " مسنده " (5/ 388 / 23347) وأبو داود (1/ 420) وغيرهما وحسّنه الشّيخ الألباني في " صحيح الجامع " رقم (4703).

(2) رواه مسلم (479) وأحمد (1/ 294/ 1900) وأبو داود (1/ 294 / 876) والنّسائي (2/ 534/ 1044) وغيرهم .

حال السّرّاء والضّرّاء، فأنت على كلّ حال تتقلّب في رِحاب العبوديَّة وتتنعَّم في رِياض التَّوحيد، وهكذا كانت حياة النبيّ ﷺ.

أخرج مسلمٌ في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها- قالت: « قَالَ لي رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يومٍ : يا عَائِشَة هَل عِندَكُم شَيءٌ؟! قَالَت: فَقُلتُ يا رَسُولَ الله مَا عِندَنَا شَيء!، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَت: فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ؛ فَأُهدِيَت لَنَا هَدِيَّةٌ أَو جَاءَنَا زورٌ، فَلَمَّا رَجعَ رَسُولُ الله ﷺ قُلتُ: يَا رَسُولَ الله أُهدِيَت لَنَا هَدِيَّةٌ أَو جَاءَنَا زورٌ؛ وَقَد خَبَأتَ لَكَ شَيئًا قَالَ:مَا هُو؟ قَالَت: حِيسٌ، قَالَ: هَاتِيه، فَجِئتُ بِهِ فَأَكَلَ، ثمَّ قَالَ : قَد كُنتُ أَصبَحتُ صَائِمًا»[1]، فما كان منه ﷺ لمّا علِم أنَّه ملكٌ لله وقد ابتلاهُ بالجوع؛ إلاّ أَن يزدَاد قربا من الله وذلاّ له، بأن يحوِّل ذلك الأمرَ الكونيَ القدريَّ الذي هو الجُوع، إلى أمر شرعيٍّ دينيٍّ وهو الصّوم، وهذا هُو الفهمُ السّليم لمعاني العبوديَّة والفقهِ الصّحيح لحقائِق التّوحيد التي يجهلها أكثَر النّاس اليوم إلاّ من رحم ربّي؛ وقليل ما هم !.

هذا، وكما أنّ الجوارح ينبَغي أن لاتستعمل إلاّ فيما أذِن فيه الشّرع ورضِيَهُ، فكذلك القَلب تجب عليه تلك العبوديَّة، فلا حركة ولا سكُون إلاّ من بعد إذنه تعالى. فعن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: « كُنَّا مَعَ النَّبيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله لأَنتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن كُلِّ شَيءٍ إِلاَّ مِن نَفسِي،

(1) مسلم (2/ 808/ 1154).

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : لا وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيكَ مِن نَّفسِكَ! فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ وَاللهِ لأَنتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن نَّفسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الآنَ يَا عُمَرُ!»[1]، فبيَّن ﷺ لِعُمر رضي الله عنه أنَّ قلبه ملكٌ لله، فلا يحبّ إلاّ ما يحبّه الله، ولا يبغض إلاّ ما يبغضُه الله، وليسَ له حقّ التّصرّف في الحبّ والبغضِ كما يشاء، بل ذلِك كلّه موكولٌ إلى إذن الشّرع وموافقته.

وهذا التّغيّر السّريع بين قوله "إلاّ من نفسي" وبين قوله عليه السلام "حتّى أكون أحبّ إليك من نفسك" وبين قول عمر رضي الله عنه أخيرا " فإنّه الآن والله لأنت أحبّ إليّ من نفسي"؛ يدلُّ على حقيقة مِلك الله للإنسان من جهة، ويدلّ من جهة أخرى على تمام معرفة الصّحابة لهذه الحقيقة وكمال إدراكهم لها، ولذلك كان الواحد منهم رضي الله عنه يقول للنّبيّ ﷺ :" فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي "، كما في خبر أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال : « إِنَّ عَبدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَينَ أَن يُؤتِيَهُ مِن زَهرَةِ الدُّنيَا مَا شَاءَ وَبَينَ مَا عِندَهُ،فَاختَارَ مَاعِندَه فَبَكَى أَبُو بَكرٍ رضي الله عنه، وَقَالَ : فَدَينَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا،فَعَجِبنَا لَهُ وَقَالَ النَّاسُ: أُنظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيخِ يُخبِرُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَن عَبدٍ خَيَّرَهُ اللهُ بَينَ أَنْ يُؤتِيَهُ مِن زَهرَةِ الدُّنيَا وَبَينَ مَاعِندَهُ؛ وَهُوَ يَقُولُ فَدَينَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا!، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ المُخَيَّرَ وَكَانَ أَبُو بَكرٍ هُوَ أَعلَمَنَا بِهِ»[2]

---

(1) البخاري (6257) وأحمد (4/ 233/ 18076).

(2) البخاري (3691).

والأحاديث والآثار الواردة عن الصّحابة في هذا المعنى أكثر من أن تُحصَر وأشهر من أن تذكر .

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحُجُرات:1]، ومعنى الآية: لا تتقدّم بين يديّ الله ورسُوله، لا في أمرٍ ولا نهيٍّ، ولا رأيٍّ ولا تفكير، بل سلّم واتّبع، فإنّ التّسليم والإتّباع سبيلُ أهل التّقوى.

" فلا يسبق العبدُ المؤمن إلههُ في أمرٍ أو نهيٍّ، ولا يقترِح عليه في قضاءٍ أو حكمٍ، ولا يتجَاوز ما يأمُر به وما ينهَى عنه ولا يجعَل لنفسِه إرادة أو رأيًا مع خالقه تقوًى منه وخشيَة وحياءً منه وأدبًا "[1] .

وقال سيّد قطب- رحمه الله وغفر له - عند شرحه لآية الحجرات: "يأيّها الذين آمنوا لا تقترِحوا على الله ورسُوله اقتراحًا لا في خاصّة أنفسِكم ولا في أمُور الحياة من حولكُم، ولا تقولُوا في أمرٍ قبل قولِ الله فيه على لسان رسوله،ولا تقضُوا في أمرٍ لاترجعون فيه إلى قولِ الله وقول رسوله..." [2]. " فعلى كلّ مؤمن أن لا يتكلّم في شيءٍ من الدّين إلاّ تبعاً لما جاء به الرّسول ﷺ، ولا يتقدّم بين يديِه، بل ينظر ما قال، فيكون قوله تبعًا لقوله، وعلمُه تبعًا لأمرِه فهكذا كان الصّحابة رضي الله عنهم ومن سلك سبيلهم من التّابعين لهم بإحسان وأئمّة المسلمين، فلهذا لم يكن

(1) في ظلال القرآن، لسيّد قطب (6/ 488) .
(2) في ظلال القرآن (6/ 491) .

أحَد منهم يُعارِض النّصوص بمعقُولِهِ، ولا يُؤسّس دينًا غير ما جاء به الرّسول ﷺ، وإذا أراد معرفة شيء من الدّين والكلام فيه نظر فيما قاله الله والرّسول، فمنه يتعلّم، وبه يتكلّم، وفيه ينظر ويتفكّر، وبه يستدلّ، فهذا أصل أهل السّنّة..." [1].

فصل : محاولة الأعداء إفساد العقد الذي بين العبد وخالقه

اعلم - عبد الله رحمني الله وإيّاك - أنّه لابدّ عليك أن تتيقّن بعدما أبرمت عقدَك مع ربّك ومولاك، وبعت نفسكَ ومالك له سبحانه وتعالى مقابل الجنّة، أنّك مُسْتَهدَف من طرف الشّيطان وأعوانه وأوليائه .

فالحذر الحذَر من أن يفسدُوا عليك هذا العقد بنقضِه أو إفساده، فإنّه الخذلان العظيم والضّلال القديم نسأل الله العافية.

وأعداؤك - يا عبد الله - كُثُر، ذكرنا منها ثلاثة فيما مضَى وهي: الشّيطان والهوى والدّنيا، وسنذكر في هذا الفصل عدوّين، أحدهما مضَى ونعيده لخطورته، والآخر لم نتطرّق إليه من قبل، وسيأتي بيانه - بحول الله -.

أولا: عداوة الشّيطان .

إنّه شرُّ الأعداء وأخطرها، وأصعبها وأخبثها، فهو العدوّ الأوّل، والماكر الذي لا يكلُّ ولا يملّ، لايزال يتربّص بالإنسان حتّى يفتكَ به من حيث لا يشعُر، فمهمّته وغايته هي كيف يصرفُ العبد عن عبادة ربّه، وكيف يكون سدًّا منيعًا في طريق

(1) مجموع الفتاوى (13/ 62-63).

وصوله إلى الجنّة . وقد بيّن المولى تبارك وتعالى في كثير من الآيات عداوة الشّيطان للإنسان، وأمره بمبادلته العداوة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر:6]، "والأمر باتّخاذه عدوّاً تنبيهٌ على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته كأنّه عدوّ لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس" [1].

وأكّد سبحانه وتعالى في كتابه على أمر العداوة لشدّة التّحرّز من الشّيطان الرّجيم، الذي يتربّص بالإنسان الدّوائر لأنّ له ميزة اختصّ بها عن بني الإنسان، وهي أنّه يراهُم دون رؤيتهم له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف:27]، وبذلك استطاع أن يصدّهم عن صراط الله المستقيم، بل وصلَ به الأمر بعدما أمكن منه اليأس من عبادته من دون الله تعالى في أرض الجزيرة العربية، إلى التّحريشِ بين العباد، روى مسلم في صحيحه عن جابر ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الشَيطَانَ قَد أَيِسَ أَن يَعبُدَهُ المصلُّون في جَزيرَةِ العَرب وَلَكِن فِي التَّحرِيشِ بَينَهُم» [2]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «إِنَّ الشّيطَان قَد أَيِسَ أَن يُعبَدَ بِأَرضِكُم هَذِهِ وَلَكِنَّهُ قَد رَضِيَ

---

(1) زاد المعاد (3/ 5) .

(2) مسلم (2812).

مِنكُم بِمَا تَحقِرُونَ »[1]. وقد تقدّم عند شرح قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف:175] الآية؛ شيءٌ من الكلام على عداوة الشّيطان للإنسان وذكر الأدلّة على ذلك، فنعوذ بالله من شرّ الشّيطان وكيده.

ثانيا: عداوة أهل الفساد والباطل

من سنن الله الكونية الباقية إلى قيام السّاعة، تَصارُع الحقّ والباطل وتخاصُم أهلهما، فالمعركة بينهما قائمة، والحرب بينهما سجال، لكنّ الغلبة آيلَة في نهايتها إلى الحقّ على الباطل، فيدمغه فإذا هو زاهق، لأنّ الحقّ نورٌ أبلج؛ تقبله كلّ نفس سليمة، والباطل لجلج؛ تردّه كلّ فطرة مستقيمة، لم يدنّسها أهل الشّرك والإلحاد، ولا عبث بها أهل الشّر والإفساد.

فانقسم النّاس إلى فريقين: فريق حامل لواء الحقّ، يُدافع عن نوره وإشراقه، وفريق يحامي عن ظلام البَّاطِل وسواده، فريق في الجنّة وفريق في السّعير!.

وهذا ما حصل تماما للأنبياء عليهم السّلام، مع أقوامهم في دعوتهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له، حيث واجهُوهم بالصّدّ والإنكار، وقابلوهم بالعتوّ والاستكبار، ورموهم بالعار والشّنار، ومع ذلك لم ينقضوا- عليهم الصّلاة والسّلام- بيعة الغفّار، ولا تركوا مقتضَى العقد الذي عقدوه مع ربّهم بالتّولّي والفِرار، بل واصلُوا مسيرتهم في الدّعوة إلى صراط العزيز الجبّار، متحمّلين في

(1) أحمد (2/ 368/ 8796) وأبو نعيم في "الحلية" (8/ 257) وصحّحه الألباني في "الصّحيحة" (1/ 763/ 471).

سبيل ذلك العقبات والأخطار، وصابرين من أجلِ ذلك على الأذى وسوء الجوار، يقول تعالى حكاية عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف:88]، فهدّدوه وخيّروه بين أن يعود إلى ملّتهم، ويتخلّى عمّا جاء به، ويوافقهم على ما هم فيه من شرك،أو يُخرِجُوه من قريتهم، فما كان من شعيب عليه السلام إلاّ أن يحفظ العقد الذي عقده مع ربّه، فردّ على تهديدهم بقوله: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف:89] ، أي لا يحقّ لنا أن نختار ملّة أخرى إلاّ ما اختاره الله لنا، لأنّ العقد يستلزم ذلك، ولا يمكنُ أن ننقُضهُ ولو تمالأَ أهلُ الأرضِ كلّهم على خلافه!.

كما حكى الله تعالى هذا الصّنيع عن قوم لوط، فقالَ جلّ ذكره: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل:56]، وقال تعالى حكاية عن مشركي قريش: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الإسراء:76] ،وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال:30].

والتّاريخ يعيد نفسه - كما يقولون! -، فهؤلاء كُفار قريش يسيرون على منوال قوم شعيب في طلبهم الاستغناء عن دين الله تعالى بما كانوا عليه من الشرك والكفر، فتَبع كفَّار قريش نهجهم، وطلبوا من نبيّ الأمّة ﷺ أن يترك ما جاءهم به من الوحي أو يبدّله. قال تعالى إخبارًا عنهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس:15] ، فأمر الله سبحانه نبيّه ﷺ أن يقول لهم:

﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس:15]، فأجاب بنفس جواب شعيب عليه السلام؛ وهذا يدلّ على أنّ المشكاة واحدة، والمعين واحد، وهو العقد الذي عقدُوه مع ربّهم جلّ وعلا، فلم يتنازلوا عنه؛ لأنّهم علمُوا حقيقةً ملكيَّة الله تعالى لأنفسهم وأموالهم؛ ففازُوا بذلك وانتصرُوا، وانقلب الذين ظلمُوا خائِبين خاسئِين، وسيعلَم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:14] ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:171-173] ، وقال عزّ شأنه وتقدّست أسماؤه:

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة:21] ، وهذه النّصرة والغلبة شاملة لكلّ من عاش بهذا الدّين، وأيقن أنّه مُلك لربّ العالمين، وحفِظ العهد الذي بينه وبين ربّه، ورضي بالبيع وفق شرُوطه، وأدّى البضاعة كما أُعطيها، وأرجعها سالمة كما أُعيرَها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر:51-52]، وقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:128] ، إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى.

فالحذر- يا عبد الله - من هؤلاء القطّاع اللّصوص أن يُبعدُوك أو يَفتنُوك عن دينك؛ لتتنَازَل عن أحكامه أو تُبدّلها بأخرى، بل عليكَ بحفظها والثّبات عليها، فإنَّ فيها الخيرَ الكثِير، واستَعن على ذلِك بالعليّ الكبير واعتصِم به، هو موليك، فإنّه نعم المولى ونعم النّصير: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران:101].

والله أسأل أن يوفّقنا للعيش بدينه، وأن يرزقنا سعادة بالتوحيد والإيمان، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه. والله سبحانه وتعالى أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

فهرس